كما نتبين اللفتة الكريمة والخلق العظيم في هذه الجزئية التالية ﴿ ذلكما مما علمني ربي ﴾ .

إن جملة « ترزقانه » في الجزئية السابقة التي توجّه الفتيين في لطف إلى الله اللطيف الخبير ، لتعتبر خير مهييء للانتقال الكلي في هذه الجزئية الثانية ﴿ ذلكما مما علمني ربي ﴾ إلى اللطيف الخبير .

وتأمل ضمير التثنية الذي نقول عنه ما قلنا في الجزئية السابقة .

وتأمل « من » التي تفيد التبعيض في قوله : « مما علمني ربي » .

إنه عليه السلام جد حريص على أن ينفي عن نفسه فضل ذلك العلم ، وقد مهد لذلك بجملة « ترزقانه » المهيئة لانتقال كهذا .

وها هو ذا الآن تجيء على لسانه الجزئية الغاية في وضوح الدلالة ﴿ ذلكما مما علمني ربي ﴾ .

وهو حريص على إظهار فضل الله العظيم عليه والإشارة إلى نعمه التي لا تحصى .

وإن لـ « من » التي تفيد التبعيض لدوراً بعيد المدى في ذلك .

فلا يقتصر فضل الله تعالى على يوسف في جعله قادراً على الإنباء بما يؤول إليه الطعام الذي يرزقانه ، ولكنه يمتد فيشمل مثلا تعبير الرؤى . وهو ما يهتم له الفتيان في تلك اللحظة .

فكأن هذه الجزئية ﴿ ذلكما مما علمني ربي ﴾ لها دورها الفعّال في تطمين الفتيين بأن يوسف سيؤول رؤياهما .

وتأمل لفظة الرب التي آثرها يوسف في هذا الموضع على ما سواها لما تتضمنه من معنى الإنعام الدائم عليه .

وتأمل ضمير المتكلم من « ربي » الذي يقدّم لهذا الغرض النبيل أجمل خدمة .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن يوسف يُعتبر وحده السراج المنير في ذلك المجتمع

استطعنا أن نفهم شيئاً من فعل سحر هذا القول: « ربي » في نفسي الفتيين ، وشيئاً من الشوق عندهما لمعرفة ما يمكن معرفته عن هذا الرب المنعم على هذا الشاب المحسن ، عسى أن ينالهما وقتاً من الأوقات غيض من الفيض الذي نال يوسف عليه السلام .

فإذا انتقلنا إلى الجزئية التالية بشقيها ﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ اتضح لنا أنها هي والجزئية الأولى من الآية التالية بمنزلة السبب لكل هذه النعم التي أنعم الله تعالى عليه بها .

وهي تتعلق بتركه ملة القوم الذين لا يؤمنون بالله تعالى ولا باليوم الآخر .

وتأمل جملة « ترك » التي تستمد عظيم دلالتها من بساطتها المعبّرة إنها تدل على أن يوسف عليه السلام ترك أساساً ملّة القوم .

وإنا لنتساءل عن هؤلاء القوم فنقول : أيّ قوم عناهم يوسف بقوله هذا؟

والمسألة لا تخلو بين كونه يعني المجتمع الذي فيه آل يعقوب أو المجتمع الذي باعته السيارة فيه .

ولا يمكن أن يقصد يوسف المجتمع الذي فيه آل يعقوب لسببين :

الأول هو أنه يمكن أن يكون ليعقوب وآله فيه آثار حسنة وآثار .

والثاني هو أن الفتيين اللذين يوجّه إليهما الحديث ، لا يعرفان شيئاً عن ذلك المجتمع ، ولو عرفا عنه شيئاً لما عرفا أن يوسف يعنيه بالذات .

ولم يبق بعد ذلك سوى أن يوسف يقصد المجتمع المصري الذي عاش فيه الفتيان حتى قضِيَ عليهما بالسجن .

وليس بخاف أن الفتيين على علم تام بقصد يوسف ، لأن الوصف الذي ذكره ينطبق على ذلك المجتمع الذي يعرفانه يقيناً .

وإن لنا وقفة أخرى عند لفظة « قوم » التي تعمد يوسف تنكيرها ، لأن ذلك يفي بالغرض ، والفتيان يعلمان يقيناً أن المراد مجتمعهما .

وفائدة التنكير في هذه المناسبة تتركز في أنه عليه السلام كان حريصاً على

استمالة قلبي الفتيين إلى دين الله تعالى بالقول اللين والموعظة الحسنة ، فجاء بلفظة القوم منكرة ، لأنها في هذه الصورة مستساغة من الفتيين وهما جزء لا يتجزأ من القوم .

بخلاف ما لو جاءت معرَّفة بأل العهدية أو بالإضافة فقيل : « القوم » أو « قومكم » فإنها في هذه الصورة ربّما كانت منفّرة لهما ، إذ يفهمانها بأنها هجوم سافر عليهما ولم يكن يوسف عليه السلام يقصد شيئاً من ذلك وقتاً من الأوقات بحال .

فدلّ ذلك على أن لفظة « قوم » منكرة ، تمر هيّنة ليّنة في آذانهما ، وتتحدّر إلى قلبيهما في هدوء ويسر فتعمل عمل السحر . وهذا ما يُعتقد أنه قد حدث فعلا .

ومن الواضح أنه يجيء على لسان يوسف الآن ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ بينما جاء في الجزئية السابقة « ذلكما مما علمني ربي » .

إنه عليه السلام حينما أراد أن يعبر عن النعم الجليلة التي خصه الله تعالى بها استعمل لفظة الرب ، وإن ضمير المتكلم قوة لهذا الفهم .

بينما الكلام في المناسبة الأخرى يعم كل القوم الذين أخطأوا الطريق الصحيح فلفظ الجلالة « الله » هو المناسب لهذا العموم .

وفي شطر الجزئية الثاني ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ يتكرر الضمير المنفصل الدالّ على التوكيد وأن هؤلاء القوم يأتون أمراً جَلَلاً .

وإن هذه الجزئية بشطريها ﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ لتقرّر مبدأين إسلاميين عظيمين :

الإيمان بالله تعالى . والإيمان باليوم الآخر .

والجزئية الأولى من الآية التالية وثيقة الصلة بالآية التي انتهينا لتوّنا منها فإلى هذه الجزئية .

قال تعالى : ﴿ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ .

ونودّ الوقوف أوّلا عند جملة « واتّبعت » من الاتباع التام المطلق .

ومَن الذي يقول هذا ؟

إنّه نبي الله يوسف عليه السلام .

ومن الذي يقرّر أنّ الدّين اتّباع فحسب ، وليس فيه مجال مطلقاً للتغيير أو التبديل ؟

إن الذي يقرّر كل ذلك يوسف عليه السلام .

وإذا كان يوسف نبي الله يقرّر هذا ويقول بملء فيه إنه متّبع لآبائه الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فهل من حقّ سواه في كل زمان ومكان أن يقول بغير هذا ؟

لا بطبيعة الحال وألف لا . ليس من حق أيّ مُسلم لله رب العالمين إلا أن يكون متّبعاً ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ .

فلننتقل الآن إلى النسق الذي ذكر فيه يوسف آباءه « واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب » .

إن يوسف يبدأ بإبراهيم وليس بيعقوب أبيه وإنه ليجعل أباه آخراً ، أليس كذلك ؟ بلى .

فما تعليل ذلك ؟

والجواب على ذلك هو أننا بصدد عبد من أكثر عباد الله تعالى شكراً للنعمة . وليس هناك نعمة كنعمة الله تعالى على المسلم بالدّين القيّم . فكيف إذا كانت النعمة الدينية هي النبوة التي منّ الله تعالى بها على إبراهيم وإسحاق ويعقوب على التّوالي ؟

لا شك أنها هي الخليقة بالإشادة بها وشكر النعم عليها . ومن هنا جاء هذا النسق ﴿ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ الذي يعتبر دليلا من الأدلة التي لا تحصى على أن يوسف عليه السلام ، لا يقول ولا يسكت ولا يتحرك ولا يهدأ إلا لله تعالى .

ولم يكن ليجيء بحال على لسان يوسف نبي الله في هذه المناسبة هذا النسق . يعقوب وإسحاق وإبراهيم الذي يدلّ على النسب ليس غير .

إنه لدرس جميل بليغ يلقيه علينا يوسف نبي الله بهذا النسق ، وإن لسان حاله عليه الصلاة والسلام ليقول لنا : يجب أن يكون كل ما يصدر عنا من قول ومن فعل أيضاً ، قياساً على القول ، إنما نريد به الله عز وجل وحده .

فإذا انتقلنا إلى الجزئية التالية في هذه الآية ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ فإن معناها كما هو واضح . ما صحّ لنا ولا استقام أن نشرك بالله من شيء .

وإن لنا وقفة عند حرف الجر « من » الذي يفيد التبعيض « من شيء » فإن نفى جزء الشيء أبلغ من نفيه كله .

ولا تخفى العلاقة الوثيقة بين الجزئيتين في الآية ، فإن كلا منهما تدعو إلى عبادة الله وحده ﴿ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ .

وإن ما يقال عن لفظ الجلالة في قوله تعالى : ﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ﴾ يقال عنه هنا .

فإذا انتقلنا إلى الجزئية الأخيرة من الآية ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ فإنا نتبين أن جزءاً منها يخص يوسف وآباءه وأتباع الشريعة الإبراهيمية ، وأن البعض الآخر يخصّ أكثر الناس الذين قرع آذانهم صوت الحق ولكنهم كانوا صمّاً وبكماً وعمياً ، فلم يقوموا بشكر الله تعالى الواجب عليهم ، لفضل الله تعالى ونعمه التي لاتحصى ، وفي مقدمتها بعث الرسل إليهم .

وهذه الجزئية ، كما هو واضح ، تقرّر حقيقة كون العدد القليل جداً من الناس ، هم الذين يقومون بحق شكر المنعم ، كما قال تعالى : ﴿ وقليل من عبادي الشكور (١) ﴾

---

١ ـ سبأ ، ١٣

وإنا لنتبين نوعاً من التوافق بين هذه الجزئية ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ وبين قوله تعالى في السورة نفسها خطاباً لنبينا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم تسلية له : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

وقوله : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ فكأن ما يجيء الآن على لسان يوسف ، يعتبر تسلية غير مباشرة له صلى الله عليه وسلم .

والآن لننتقل إلى الآية التالية :

قال تعالى : ﴿ يا صاحبي السجن أأربابٌ متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾.

وإن لياء النداء لوقعاً حسناً في نفسي الفتيين السجينين اللذين ينبغي أن يكونا متعطشين ، بسبب الظرف العصيب الذي هما فيه ، إلى كل لفظ جميل بطريقة جميلة ، تدلّ على العناية بهما ، والاهتمام لهما ، فكيف إذا رنّ في آذانهما لفظ الصاحب الذي يدل على المصاحبة . ولكن في أي شيء ؟

إنها المصاحبة ساعة دخول السجن وفي البقاء فيه . فهذا ما يفهم من القول على لسان يوسف « يا صاحبي السجن » .

وليس هناك من لفظ يحتلّ مكان لفظ السجن أصدق ولا أبلغ منه .

وهل هناك نوع آخر من المصاحبة يتقدم المصاحبة في السّجن ، بين يوسف عليه السلام ، المسلم لله رب العالمين ، وبين الفتيين المشركين ؟ والجواب بطبيعة الحال معروف .

ودلّ ذلك بالتالي على الوقع الجميل لهذا القول في نفسيهما . لأنهما يسمعان خير ما يمكن أن يسمعه من كان في مثل موقفهما وموضعهما في السجن من عبادة الله وحده .

وتأتي بعد ذلك المقارنة الجوهرية في القول على لسان يوسف : ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ .

فهناك من ناحية ، الأربابُ المتفرقون بطبعهم دائماً ، الذين ﴿ لا يخلقون

شيئاً وهم يخلقون . ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ (١) .

وهناك في المقابل الله الواحد القهار .

وإن للاستفهام دوره العظيم هنا ؛ إذ يحمل الفتيين على المشاركة الفكرية الإيجابية ، لأن فيه إشعاراً لهما بكيانهما ووجودهما ورد شيء من الاعتبار لهما الذي ضاع في زحمة الأحداث التي هما فيها .

وبما أن السؤال الذي يطرحه يوسف منطقي فالجواب معروف .

وليس في إمكاننا إلا أن نقف ونتأمل اللفظ البسيط البريء الهادئ « خير » الذي يجب أن يكون له فعل السحر في نفسي الفتيين المنكسرتين .

وإذا وضعنا صفة الأرباب « متفرّقون » في كِفّة ، ووضعنا في الكِفّة الأخرى صفة « الواحد » والصفة « قهار » في صيغة المبالغة ، اتضح لنا كيف تتعلق الكفة الأولى بالفراغ ؟

ومع علم يوسف بموافقة جواب الفتيين لمراده فإنه يزيد المسألة توضيحاً. قال تعالى على لسانه: ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وإنا لمتّفقون على أن يوسف قد بلغ بتدرجه اللطيف الغاية وأصبح من حقه أن يتوجه إلى الفتيين بخطابه المباشر .

ومع ذلك فهو إنما يجيء على لسانه « ما تعبدون » وليس ، ما تعبدان ، فكأن ما جاء على لسانه عليه السلام يجمع بين الصراحة لاستعماله تاء الخطاب. وبين استمرار اللطف السابق ؛ إذ أنّ كلامه عن كل القوم في ذلك المجتمع ، ويدخل الفتيان فيه ضمناً .

وكأنه عليه السلام يتخيل كلّ القوم أمامه ، فيوجه خطابه إليهم وإلى الفتيين .

---

١ ـ الفرقان : ٣

وتأمل اللفتة الكريمة في قوله: « من دونه » ففيها حصر للكلام فيما يعبد من دون الله تعالى ، من الأسماء التي خلعوها هم أنفسهم من ذات أنفسهم على بعض المسمّيات على أنها آلهة .

ومعنى « إلا أسماء أي ألفاظاً أحدثتموها أنتم وآباؤكم فهي فارغة لا مسمّيات تحتها » (١) .

ولم يأذن الله تعالى في أي صورة من الصور بذلك ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ .

عملية البناء الصّحيح للعقيدة :

وبعد تبيين فساد عقيدة هؤلاء القوم ، ومحاولة هدمها من أساسها الزّائف ، تأتي عملية البناء الصحيح للعقيدة : ﴿ إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

إن الحكم لله الحكيم وحده ، وليس للقوم ولا لأصنامهم ، فالله تعالى أمر ألا تعبدوا إلا إياه .

إننا ولا شك بصدد عبارة الغاية في القوة ، تحصر العبادة في الله وحده ، خاصة إذا وضعنا جملة « أمر » من قوله: ﴿ أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ في كِفّة . وجملة « أنزل » من قوله تعالى على لسان يوسف بشأن أصنام القوم: « ما أنزل الله بها من سلطان » في الكِفّة الأخرى .

وتأتي العبارة التي تصف حقيقة هذا الدين ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ . « ومعنى القيم ، الثابت الذي دلت عليه البراهين » (٢) .

وهذه الجزئية الأخيرة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ لتقرّر حقيقة النسبة المحدودة للمؤمنين بالقياس إلى من عداهم .

وقد يكون عَدَم عِلْم الناس لأنه لم يصلهم أساساً نداء الحق .

وقد يكون ذلك ناجماً عن انحراف منهم بعد علم .

٢،١ ـ البحر المحيط ٥/٣١٠ .

وهذه الجزئية أيضاً لها دور غير مباشر في تسلية نبينا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذي كان آنذاك بمكة .

تعبير رؤيـا الفتيين :

وبعد أن انتهى يوسف عليه السلام من دعوة الفتيين صراحة إلى دين الله ربّ العالمين وهي الغاية التي يسعى إليها كل مسلم لله ربّ العالمين ، فكيف بنبيّ الله يوسف الذي واتته الفرصة كي يكون سبباً في إخراج الفتيين من ظلام الشرك إلى نور الإسلام ؟ انتقل عليه السلام إلى تعبير الرؤيا وإجابة طلب الفتيين .

وقبل الانتقال إلى التعبير ، نود الإشارة إلى أن هذا العمل من يوسف ، والمجهود العظيم الذي بذله متدرجاً بالفتيين من مسألة إلى مسألة حتى هيأهما لتقبل دعوته ، ثم دعاهما صراحة إلى دين الله تعالى ، ليس إلا رمزاً للمجهود العظيم الذي يبذله في كل مناسبة .

وهذه الحقيقة أعظم الأسباب في إيثار يوسف عليه السلام التّعب والنّصب والشّقاء في مصر إرضاء لله تعالى على الأهل والأقارب والخلان والراحة في الشام .

وإن هذا لدرس عظيم يلقيه هذا النبي العظيم على كل حامل أمانة من أمة الإسلام في كل زمان ومكان .

والآن إلى الآية التي عبّر فيها يوسف عليه السلام الرؤيا ، قال تعالى على لسانه: ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ .

وأول ما يلاحظ هو أنه عليه السلام يكرر قوله: « يا صاحبي السجن » الذي سبق أن جاء على لسانه .

وهذا القول فيه لطف وأنس ، وفي تكراره تعميق لكل ذلك في نفسي

الفتيين اللذين أخذ كلام يوسف الطيب الصادق يروضهما كي يدخلا في دين الله تعالى ويعبداه وحده لا شريك له .

وبعد هذه التوطئة اللطيفة يأتي دور تعبير الرؤيا ﴿أما أحدكما فيسقي ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾ .

ويلاحظ أن تعبير يوسف لرؤيا كل من الفتيين وافق ترتيبهما في الطلب ، وبما أن السّاقي هو السابق فبناء على ذلك هو السّابق لأن تعبر رؤياه .

ويلاحظ أيضاً أن التعبير يدل على أن نهاية الساقي سعيدة وليس كذلك الخبّاز ، فهو الشخصية الوحيدة التي نهايتها غير سعيدة ، في قصة يوسف .

وبما أنه من الطبيعي أن يكون صريحاً في تعبير رؤيا الساقي ، فهل كان مرغماً على أن يكون صريحاً مع الخباز الذي نهايته أليمة ؟

كي نجيب على ذلك ويتضح موقف يوسف عليه السلام فإنا نقرّر ما يلي :

أولا : بما أن الساقي هو الذي طلب تعبير رؤياه أولا وأن على يوسف ، القمة في حسن المعاملة ، أن يجيب السائل الأول على طلبه ، ووافق أن نهاية الأول سعيدة ، وهي نهاية يجب أن يعرفها بوضوح صاحبها على حقيقتها ، لذلك فقد كان ذكر يوسف لحقيقة تعبير رؤيا الأول موطّئاً ومهيئاً لذكر حقيقة تعبير رؤيا الثاني .

ثانياً : إن الهدف البعيد الذي يرمي إليه يوسف ، ليس تعبير الرؤيا ، وهذا واضح ، إنما الدعوة إلى دين الله تعالى وعبادته وحده .

وإذا صادف أن عند الساقي فسحة من الوقت كي يتدبّر أمره ، وليس عند الخباز مثل ذلك ، ولا يعلم هذه الحقيقة من البشر إلا يوسف الذي كان حريصاً على أن يلقى الخباز ربه مؤمناً به عابداً له وحده لا شريك له ، لذلك كان طبيعيّاً أن يكون يوسف صريحاً معه .

ثالثاً : إن يوسف عليه السلام ، بدليل أنه طلب من الذي ظن أنه ناج منهما أن يذكره عند سيده ، كان عنده اعتقاد بأن موافقة تعبيره لما سيحدث

لكل من الفتيين ، ربما كان له دور ما في خروجه من السجن .

وتفسير ذلك هو أنه حينما كان صريحاً في تعبيره مع الفتيين ، وتحقق للساقي إسقاؤه لسيّده خمرا ، وتحقق للخباز صلبه وأكل الطير من رأسه ، فإن الذي نجا منهما يتحقق له من نجاته هو وصَلب رفيقه قدرة يوسف الفائقة على تعبير الرؤيا . بخلاف ما لو كان يوسف صريحاً معه وغير صريح مع رفيقه فإن الساقي ربما قال : إنما وافق تعبير يوسف لرؤياي ما حدث لي في الحقيقة من قبيل المصادفة ، وإلا فلماذا لم يوافق تعبير يوسف لرؤيا زميلي ما حدث له في الحقيقة ؟

أو لماذا لم يكن صريحاً معه صراحته معي ؟

بل إن الساقي إنما استدل على قدرة يوسف هذه ليس من صلب الخباز فقط ، وإنما من أكل الطير من رأسه أيضاً .

وهكذا يتّضح بعد كل الذي ذكرنا أن يوسف عليّه السلام كان محقّاً الحق كله في أن يكون صريحاً مع الخباز .

وهي صراحة تدلنا على أن يوسف رجل قوي الشخصية حقّاً ، شجاع ، يجهر بالحقيقة مهما كانت ، أكانت حلوة أم مرة .

وهو جهر يدلنا على شجاعته في قول الحق دائماً وأبدا وفي كل مناسبة مهما كلّفه ذلك من تعب وعنت .

وهل يستغرب شيء من هذا ونحن بصدد نبيّ من أنبياء الله تعالى ؟ لا ، بطبيعة الحال .

ومع أن يوسف صريح في قوله ، إلا أن في الإمكان القول : إنه ، رحمة منه بغير سعيد النهاية منهما ، كان صريحاً الصراحة الضرورية وليست الصراحة المطلقة .

إنه يجيء على لسانه ، أما أحدكما فيسقي ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ولا يجيء على لسانه مثلاً : أما أنت فتسقي سيدك خمراً وأما أنت فتصلب فتأكل الطير من رأسك .

ومع أنّ الفعل المبني للمجهول « يصلب » هذا هو مكانه الطبيعي ، إلا أنه يظل يدل على تجاوب يوسف عليه السلام الإنساني النبيل مع الذي سيصلبه المسؤولون بأمر سيده .

الصّراحة ومقـدارها :

في ضوء صراحة يوسف ، خاصة مع الساقي ، لنتساءل : أي المواقف يجمل فيها الصراحة وأي المواقف يجمل فيها التلميح والكناية ؟

وإن الجواب على ذلك لنأخذه من فم نبي الله يوسف عليه السلام .

إنه في هذا الموقف الذي نحن بصدده يكتفي بالقدر الضروري من الصراحة ،ولكن حينما تتهمه امرأة العزيز أمام زوجها بقولها : ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلاّ أن يُسْجَنَ أو عذاب أليم ﴾ يكون رده عليها أمام زوجها القمة في الصراحة .

قال تعالى عنه : ﴿ قال هي راودتني عن نفسي ﴾ .

بينما حينما أرسل إليه الملك رسولا كي يأتي عنده بعد تعبيره لرؤياه إذا بيوسف ، وهو الذي يريد أن تثبت براءته ، لا يتعرض لامرأة العزيز ، السبب الأول في دخوله السجن ، ولا لامرأة بعينها ، إنما يتعرّض ، أدباً منه صلوات الله وسلامه عليه ، لجماعة النسوة .

قال تعالى : ﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم ﴾ .

إنه عليه السلام يتخذ الموقف الصريح ردّاً على امرأة العزيز لأنها تتهمه في خلقه .

وقد قال تعالى عن المؤمنين في كتابه العزيز : ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ (١) . ويتّخذ الصراحة الكافية الضرورية مع الفتيين في تعبير الرؤيا امتداداً لتلطفه المستمر معهما واستمالة منه لقلبيهما إلى عباده الله وحده

---

١ ـ الشورى : ٣٩

لا شريك له . بينما يكتفي بالتلميح إلى جماعة النسوة حينما جاءه رسول الملك ، لأن همه منصب على إثبات براءته والانتصار لدينه وأنه زج به في السجن ظلماً، وليس منصباً على رد الإساءة إلى امرأة العزيز .

وبناءً على هذه المواقف المختلفة ليوسف عليه السلام من الصراحة وعدمها نستطيع إجابة على تساؤلنا أن نقول : إن الفيصل في مقدار الصراحة يجب أن يكون المنفعة الدينية وليس المنفعة الشخصية . إن يوسف عليه السلام إنما كان يَرْضَى في الله ويغضب في الله ويصدر في كل أقواله وأفعاله بتوجيه من دين الله عز وجل . وما أجمل التأسّيَ بنبي الله يوسف ذي الخلق العظيم !

وإن هذه الجزئية التعقيبية على لسان يوسف عليه السلام ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ لتدل على الثقة المطلقة فيما قاله بوحي من الله تعالى للفتيين . وإن كلاماً كهذا لا يمكن أن يصدر إلا من نبي من أنبياء الله رب العالمين . وهذا دليل آخر يضاف إلى الأدلة الأخرى في هذا المشهد على أن يوسف قد نبّيء فعلا .

طلب يوسف من النّاجي منهما ذكره عند ربه :

والآن إلى الآية الأخيرة في هذا المشهد :

قال تعالى: ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين ﴾ .

وإنا لنتساءل : متى قال يوسف ذلك للفتى الذي ظن أنه ناج منهما ؟

هل قال له ذلك بعد تعبير الرؤيا مباشرة أم في وقت لاحق ؟

الحقيقة أنه ليس هناك ما يمنع أن يكون قد قال ذلك بعد تعبير الرّؤيا مباشرة ، امتداداً منه صلى الله عليه وسلم لثقته المطلقة في صحة العلم الذي أوحى الله تعالى له به ، شريطة ألا يسمع الخباز هذا القول ، فإن احتراساً كهذا هو الذي ينتظر من نبي الله يوسف ، القمة في رهافة الإحساس .

وهذا الرأي هو الراجح في اعتقادي ، خاصة وأنه قد جاء في السياق جملة « ظن » التي تتمشى مع الذي لمّا يحدث بعد ، والله أعلم .

كما أنه ليس هناك ما يمنع أن يكون قد قال ذلك في اللحظة التي همّ فيها الساقي بمغادرة السجن بعد علمه بإطلاق سراحه وإعادته لعمله السابق ساقياً للملك .

ومع ذلك فمن الجائز أن يكون قد قال ذلك للسّاقي في المناسبتين من باب التذكير .

وهذا القول طبيعي من يوسف عليه السلام الذي سجن ظلماً ، خاصة وأنّ الساقي بحكم عمله ، يرى الملك دائماً ، ومن الجائز جداً أن يذكره لسيده دون أن يطلب يوسف منه ذلك لأنه قد أَحْسَنَ إليه إحساناً بعيد المدى ؛ إذ بشّره ليس بنجاته قط ، وإنما بعودته لعمله السابق أيضاً . فكيف إذا طلب يوسف منه أن يذكره عند سيده ؟

ولكن إرادة الله تعالى لم تشأ ذلك ، فأنساه الشيطان ، عدو الإنسان وعدو عباد الله الصالحين ذكره عند سيده الملك . وهكذا مضت إرادة الله تعالى النافذة ، وتساوى طلبُ يوسف من الفتى ذكره عند سيده وعدم طلبه منه ذلك .

والشيء الذي نودّ تبيينه هو أن الفتيين قد مكثا في السجن مدة قبل أن يغادراه ، كل في وجهته .

وفي تلك الأثناء . كان يوسف عليه السلام ، امتداداً لدعوته الفتيين لدين الله تعالى ، ينبئهما كل مرة بالطعام الذي سيأتيهما ويكرر دعوته لهما لعبادة الله الواحد القهار ونبذ الأرباب المتفرقين .

وهذه الفترة التي سبقت طلب يوسف من الساقي أن يذكره عند سيده الملك غير السنوات العدة التي قضاها في السجن ، بينما قضاها الساقي ساقياً للملك .

ونستطيع أن نفهم أن فعل يوسف مع الفتيين من دعوتهما إلى الله تعالى ، رمزٌ لفعله دائماً مع كل من في السجن .

تعبير يوسف عليه السلام لرؤيا الملك :

القرآن الكريم ، يلقي علينا نحن المسلمين ، مِنْ مُكْثِ يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين ، على الرغم من طلبه من الساقي أن يذكره عند سيده ، درْساً بليغاً نافعاً مفاده باختصار : أن الإنسان مهما كان حريصاً على الخير العاجل لنفسه ، فلا يحدث إلا الخير الذي قضاه وقدّره أحكم الحاكمين .

وقد تساوى بشأن يوسف طلبه من الساقي ذكره عند سيده وعدم طلبه منه ذلك . وإنما خرج يوسف من السجن ، حينما أراد الله تعالى له ذلك . فشاءت إرادته أن يرى ملك مصر رؤيا يعجزُ أهل الحل والعقد عن تأويلها ، ويعلم الساقي بحاجة الملك الملحة إلى ذلك ، وهنا فقط يتذكر يوسف ، ليس صاحبه في السجن الذي أحسن إليه الإحسان كله ، لكن المعبّرَ للرؤى . ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ (١) .

يحبّر العنوان

فإلى رؤيا الملك وتعبير يوسف لها :

قال تعالى : ﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمانٍ يأكُلُهن سبعٌ عجاف وسبعَ سنبلات خُضْر وأُخَرَ يابسات ، يا أيُّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرُّؤيا تعبرون ، قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ، وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمّة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ، يوسف أيُّها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمانٍ يأكُلُهن سَبْعٌ عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ، قال تزرعون سبع سنين دَأَباً فما حصدتمْ فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتي

---

١ ـ الانسان ، ٣٠

من بعد ذلك سبعٌ شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغاثُ الناس وفيه يعصرون) .

إنا جميعاً لنقف بإجلال وإكبار أمام هذا الخُلق العظيم لنبي الله يوسف عليه السلام الذي أُسيء له في ذلك المجتمع الإساءة كلها ، والذي كان ما زال في السجن الذي زُجَّ به فيه ظلماً منذ سنوات .

ولا نتبين هذا الخلق العظيم فقط من تعبيره للرؤيا الذي يعود بالنفع العظيم على ذلك المجتمع ، إنما ومِنْ نصحه البعيد المدى الغريب الصفة للقوم وإعطائهم بسخاء علم العام الخامِسَ عشَر ، ذلك العلم الذي منحه الله تعالى إياه وخصّه به . والذي لو فرض أنه سكت عنه ، فلن يخطر بحال ، على بال أحد السؤال عنه أو الإحساس بفقده .

إن كل هذا من الأدلة الكثيرة على أن يوسف عليه السلام إنما يصدر في كل أقواله وأفعاله ، عن المنفعة الدينية والدنيوية للجماعة ، وليس عن المنفعة الشخصية الدنيوية ، وأنه عليه السلام يضحّي في سبيل رسالته بكل رخيص وغال .

فإلى أُولى الآيات التي تخص يوسف عليه السلام :

قال تعالى على لسان الساقي : (يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون) .

وأول ما يلاحظ على قول الساقي ذكر اسم يوسف صراحة وهي صراحة تدل على منزلة يوسف الرفيعة في نفسه ، تماماً كما كانت له عليه السلام في نفس الشاهد الذي أكبر في يوسف عفّته وطهره .

كما ينعته بصيغة المبالغة « صديق » « يوسف أيها الصديق » .

وهي صيغة تدل على تتبع الساقي لكل ما حدث ومقارنته له بكل ما قاله

يوسف فتبين له صدق قوله ، وكلّ ذلك امتداد للصدق الذي عرفه به طوال الفترة التي صاحبه فيها .

لكل ذلك لم يقتنع بصيغة اسم الفاعل « صادق » .

وهذه الصيغة تدل أيضاً على ثقة الساقي المطلقة في موافقة ما سيقوله يوسف ، تعبيراً لرؤيا الملك ، مع الأحداث المقبلة ، وصدقه في كل ما سيصدر عنه من قول .

ويستعمل الساقي جملة « أفتنا » وليس أي جملة أخرى أخف وزناً وأقلّ أثرا . إنه يطلب الفتيا في هذه الرؤيا ، والمعروف أنها لا تطلب إلا في الأمر الجلل . ولا يخفى أن قول الساقي هذا يعبر عن اهتمام صاحب الرؤيا نفسه بها .

وحينما لا يستفتي الساقي إلا يوسف ، فذلك دليل على منزلته عنده ، تلك المنزلة التي ما لبثت أن كانت ليوسف ، بعد تعبير الرؤيا ، عند الملك نفسه .

ومع أن القرآن الكريم لا يشير إلى صاحب الرؤيا في قص الساقي لها على يوسف ، إلا أنه ليس هناك ما يمنع أن يكون الساقي قد صرح ليوسف بصاحبها . ولم يشر القرآن إلى ذلك ، اكتفاء بالإشارة الأولى الصريحة في قوله تعالى : ﴿ وقال الملك إني أرى . . . ﴾

فإلى تعبير يوسف للرؤيا . قال تعالى : ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ﴾ .

وأول ما يلاحظ على الآية الأولى هو أنه يجيء على لسان يوسف : « تزرعون » وليس ازرعوا قياساً على قوله بعد ذلك : «فذروه» فلماذا ؟

والجواب على ذلك هو أن جملة الفعل المضارع « تزرعون » مع أنها تشير بالزراعة وتنصح بها إلا أنها لا تنصح بشيء معدوم إنما بشيء موجود

فعلا . ولكن والحق يقال هي إضافة إلى ذلك تنصح بالاستمرار في العمل بجد واجتهاد وتعب ، وهو ما يؤكده قوله : « دأبا » (١) .

حتى إذا انتقل يوسف إلى الحديث عن الشيء الذي لم يعمل به أساساً ، ولم يفكر فيه أصلا ، تحول إلى جملة فعل الأمر ، ذات الدور الأكثر إيجابية ، إزاء الشيء الذي ينصح بالقيام به ، هذه المرة ابتداء .

وإنك لتوافقني على أن هذا اللفظ « دأبا » مظهر من مظاهر نصح يوسف للمجتمع الذي أساء إليه .

فإلى الجزئية الثانية من الآية :

قال تعالى على لسانه : ﴿ فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون ﴾ .

لقد لاحظنا التحول من الفعل المضارع في الجزئية الأولى إلى الماضي فالأمر في هذه الجزئية .

ونود الوقوف أولاعند « ما » من قوله : « فما حصدتم » وهي من الجائز أن تكون موصولة ، ولكن تبقى مسألة الفاء من قوله« فذروه » فإن الكلام يستقيم بدونها وكأنه قال:فالذي حصدتم ذروه في سنبله ، ويبقى الكلام عادياً لا نتبين فيه حرارة إخلاص يوسف عليه السلام .

فبقي بعد ذلك أن نذهب إلى أن « ما » شرطية وأن الفاء رابطة للجواب ، وكأن المعنى : فإن حصدتم فذروا المحصود في سنبله .

وإن لسان حاله عليه السلام ليضيف إلى ذلك قوله : « في كل مرة » .

وعلى هذا يكون دور الفاء من « فذروه » إيجابياً ، وهو ما نعتقد أنها جاءت من أجله ، ونتبين حرارة إخلاص يوسف عليه السلام في نصحه ، وقد جعل من أدلة ذلك التحول من صيغة المضارع في الجزئية الأولى إلى الصيغة الشرطية في الثانية .

---

١ ـ انظر القاموس مثلا .

وينبغي أن يكون يوسف يقصد من هذا التحول شيئاً مُرضياً ، وإلا فقد كان بإمكانه أن يجعل كلامه يسير على وتيرة واحدة ، بصيغة المضارع .

وإن لجملة فعل الأمر « فذروه » لوزناً ووقعاً من نوع معين يتمشى مع إخلاص يوسف النصيحة للقوم ، ومع سني الشدة السبع التي ستعقب سني الرّخاء .

وإن يوسف عليه السلام ، بإلهام من الله تعالى ، ليبدو من أكثر العلماء خبرة بالزراعة وطريقة حفظ المحصول من الآفات .

وقد استثنى بقوله : ﴿إلا قليلا مما تأكلون﴾ ما يجب أن يكون طعاماً للقوم ، فهذا هو الذي يعمل به ما يعمل بمثله في المناسبات الأخرى .

ومعروف أنه عليه السلام يريد من القوم أن يضاعفوا من عملهم ويحاولوا جاهدين زيادة الإنتاج عن المعتاد ، لأن محصول السنة الواحدة من سبع الرّخاء سيوزع على مثلها من سبع الشدة .

وفوق ذلك هو كان على يقين من أن الناس سيتجهون من كل حَدَب وصوب تجاه مصر طلباً للطعام ، فعلى القوم أن يحتاطوا لذلك .

وفي الآية التالية: ﴿ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهنّ إلا قليلا مما تحصنون﴾ يبين عليه السلام ما ستعمله سبع سني الشدة ، فيصفها بأنها شداد .

فليس هناك مدد من السماء ولا نبع من الأرض ، وبالتالي سيكون الاعتماد على المخزون .

وتأمل التعبير المجازي الرائع في قوله عن السبع الشداد: ﴿يأكلن ما قدمتم لهنّ﴾ .

إن لدى هذه السنوات السبع الشداد القدرة لأن تبتلع كل ما يقدّم لها من طعام ، حتى تكاد تأتي على الطعام كله ، باستثناء القليل جداً من الذي سبق أن وضعوه في حصن حصين وحرز أمين .

وهوما يفيده قوله في الجزئية الأخيرة: «إلا قليلا مما تحصنون» التي تعتبر امتداداً لنصحه عليه السلام للقوم .

وكأنه يقول لهم : عليكم أن تضعوا ما تذرونه في سنبله في أماكن هذه صفتها ، خوفاً من الآفات المتعددة ، ومنها النار مثلا .

وتأتي الآية الأخيرة التي فيها علم العام الخامِسَ عشر الذي خصه الله تعالى به، فلم يبخل بعلمه على القوم الذين سجنوه ومازال باقياً في سجنه ظلماً .

قال الله تعالى على لسانه : ﴿ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يَعْصِرون﴾ .

والمراد أن القوم سيغاثون في ذلك العام بالمطر ، فتحيا الأرض بعد موتها وتنبت من كل زوج بهيج ، فلا يكتفون بأكل الناتج ، ولا يقتصر ذلك على ما يؤكل إنما يتسع فيشمل ما يعصر أيضاً .

وهم بسبب الفائض في الإنتاج سيقومون بما اعتادوا عصره سابقاً من سمسم وفجل وقصب وعنب وزيتون . وإن مصر لبلد عصير لأشياء كثيرة .

وهكذا يتبين أن يوسف عليه السلام لا يكتفي بتعبير الرؤيا إنما يتّخذ تعبيره وسيلة لنصح غير محدود .

إنه لا يطلب منهم مجرد الزراعة ولكن أن يجدوا ويجتهدوا ويتعبوا في ذلك .

وهو ينصح في أسلوب الشرط أن يذروا ما يحصدون في سنبله فلا يكتفي بالأسلوب البسيط ولا بالنصح المجرد ، ولكن يعين للقوم الطريقة التي عرفها بإلهام من الله تعالى وهو الرجل الذي ليس له عَلاقة مطلقاً بالزراعة ولا بالاقتصاد .

ويبين في أبلغ عبارة الطريقة التي تلتهم بها سنو الشدة كل ما يقدم لها من طعام باستثناء القليل الذي ينصحهم بأن يكونوا قد جعلوه هو ومايستهلكونه طعاماً لهم تلك السنوات ، في حصن حصين وحرز أمين .

إن كل ذلك النصح من يوسف للقوم الذين ما زالوا يسجنونه ظلماً لدليل على أننا أمام إنسان لا يمكن إلا أن يكون القمة في الخلق العظيم .

وهو إنما عرف بإلهام من الله تعالى كل دقائق المستقبل .

ولا يمكن أن يصدر ذلك إلا من نبي من أنبياء الله تعالى .

والآية الأخيرة في هذا المشهد ، لا يصف فيها يوسف نبي الله ، العام الخامس عشر ، وصفاً عادياً ينطبق على كل عام ليس واحداً غير سنى الشدة السبع . ولكن يصفه وصفاً يميزه عن أي عام سواه من سنى الرخاء والشدة على السواء .

إنه عليه السلام ينصح القوم في سنى الرخاء بأن يجتهدوا غاية الاجتهاد في الزراعة استعداداً لسنى الشدة ، ونميل إلى الاعتقاد بأن سنوات الرخاء السبع لو كانت تشبه العام الخامس عشر المتميّز لكان يوسف في غنى عن لفظ « دأباً » في قوله تعالى على لسانه ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأباً ﴾ لأن المطر حينما ينهمر من السماء انهماراً فإن الإنتاج بطبعه سيكون كبيراً يفوق الإنتاج في العادة مع بذل الجهد المضني حينما لا يكون هناك مطر أساساً .

وإن الآية التي تتحدث عن العام الخامس عشر ، لتشير إلى المطر صراحة « فيه يغاث الناس » وهذا يعني أنه عام متميز ، خاصة والمعروف أن المطر بوادي النيل قليل في العادة .

وإن الإنتاج الكثير لهذا العام ليجعل الناس قادرين على عصر كل ما اعتادوا عصره .

وفي إمكاننا أن نفهم أن ذلك يتم دون الحاجة إلى بذل المجهود المضني الذي طلبه منهم يوسف في سبع سنى الرّخاء .

إن كل المعلومات المتميزة الدقيقة عن هذا العام ، بإلهام من الله عز وجل ، تجعلنا نقول بكل بساطة :

إننا أمام نبي من أنبياء الله تعالى ، وإن هذا دليل من الأدلة العديدة على

أن يوسف إنما كان نبياً فعلا قبل أن يخرج من السجن ، وكأن النبوة مظهر من مظاهر اصطفاء الله تعالى لعبده يوسف بآلائه التي لا تحصى ، مقابل ابتلائه له مع إخوته والنسوة وفي السجن ، وصبر يوسف عليه السلام دائماً وتقواه .

ونستطيع أن نقول إن هذا الخُلق العظيم ، ليسير في كنف النّبوّة التي اصطفى الله تعالى بها يوسف ورعايتها .

والحقيقة أن هناك مسألة مهمّة جداً تلح علينا هي أنه ما دام يوسف عليه السلام قد نبيء في السجن فهل اعترف له بحرّيته قبل دخوله السجن أو بعد خروجه منه .

والجواب على ذلك ، في ضوء كونه عليه السلام قد نبّيء في السجن ، هو أننا لا نرى ما يمنع أن يكون عليه السلام قد نال هذه الحرية قبل أن يزجّ به في السجن ، ولا نستكثر ذلك من القوم الذين سجنوه لسبب بسيط هو أن القوم عندهم شيء من ضمير يؤنبهم في صورة مبهمة غامضة على سجنهم يوسف ظلماً فيقررون سجنه على أمل إطلاق سراحه حينما تهدأ الشائعات ، وهو ما يفهم من قوله تعالى : « حتى حين » في قوله : ﴿ثم بدا لهم من بعدما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾ .

رفض يوسف الخروج من السجن قبل ثبوت براءته :

وفرح الملك بتعبير رؤياه المعقول جداً .

وأعجب بشخصية يوسف عليه السلام القادرة على كل هذا ووجودها ، بالرغم من ذلك في السجن .

وتبين له أن هناك تناقضاً ولغزاً يكمن وراء هذا المُكْث في السجن . فبعث إليه رسولا يدعوه . فإلى الآية التي تبين ما جرى ورد يوسف عليه السلام .

قال تعالى:﴿ وقال الملك ائتوني به ، فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم ﴾ .

ونود تأمل جواب يوسف عليه السلام واستنتاج ما يمكن أن يدل عليه .

وأول ما يلفت انتباهنا حقاً هو أنه على الرغم من قضاء يوسف هذه السنوات العديدة مظلوماً في السجن ، إلا أنه حينما يطلب إليه أن يغادر السجن ومقابلة الملك ، فإنه يسعى بكل ما أوتي من قوة لإثبات براءته ، والإثبات ، قبل أن يغادر السجن ، أنه سجن ظلماً بسبب الكيد له .

إنا في الحقيقة لنقف مشدوهين أمام القوة العجيبة لهذه الشخصية الفذة ، الغاية في الهدوء والرزانة والصبر وقوة الاحتمال والسعى الدائب لإحقاق الحق ، مهما كان الثمن غالياً .

وحينما نتبين أن يوسف قد ثبتت براءته بحضرة الملك بينما هو في السجن ، فإنا ندرك قيمة خروجه وقد ثبتت براءته فعلا ، والمكسب الذي ناله من تمسّكه بثبوت البراءة أولا .

ويتضح ذلك من تمثلنا خروجه من السجن لو لم يتمسك بذلك وقد اعتقد الجميع بأنه يستحق على أقل تقدير شيئاً مما ناله . وإن هناك لفرقاً واضحاً في ثبوت البراءة ، التي سينتهي إليها بصفة أكيدة ، بين الثبوت أمام يوسف ، بحضرة الملك ، وبين الثبوت الذي تم فعلا وهو غائب .

ولا شك أن الثاني أبلغ وأعمق أثراً في النفوس .

فإذا تأملنا القول الذي جرى على لسان يوسف عليه السلام ، فإنا نتبين من استعماله لحملتي فعل الأمر « ارجع » و « فاسأله » عزة الإسلام لله رب العالمين .

إنه عليه السلام على حقّ ، وهو عزيز بدين الإسلام ، ونتبين في هذا القول على لسانه: ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ﴾ شيئاً من شبه بقول سليمان ابن داود عليهما السلام « ارجع إليهم » خطاباً لرسول ملكة سبأ التي أرسلت

إليه بهدية في قوله تعالى(١) ﴿ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ .

إن يوسف عليه السلام ليتعمد صيغة جملة فعل الأمر مرّتين ، وليس أي صيغة أخرى لأنها تقلّ قوة أبداً . ثم إنه يجيء على لسانه قوله: « ربك » وليس ربي .

وكي نتبين عزة نفس يوسف بالحقّ وقوة شخصيته ، فإنّ في إمكاننا أن نتأمل قوله : « ربي » اعترافاً منه بإحسان زوج امرأة العزيز في قوله تعالى على لسانه خطاباً لها : ﴿ معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ﴾ .

إنه لم يقل مثلا : إنه ربكِ أحسن مثواى . لأن الموقف موقف اعتراف من يوسف بإحسان العزيز له خاصة ؛ ولأن الأمر الذي يدعي إليه يسيء إلى الرجل الذي أحسن إليه . أما في خطابه لرسول الملك فإن موقفه يختلف . إنه موقف عزّة المسلم لله رب العالمين ، الذي لا يمكن إلا أن يكون بالحقّ عزيزاً دائماً .

فإذا تحولنا إلى هذا السؤال على لسان يوسف: ﴿ ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ ؟ فإن هناك أكثر من ملاحظة على هذا السؤال . إن الخُلُق العظيم الذي فطره الله تعالى عليه ، يجعله ينبه على الظلم الذي حاق به بالإشارة إلى جانب من المسألة يشي بالغرض ويفي به . ولا يسيء إلى شخص بعينه ، بما في ذلك امرأة العزيز، السبب الأول في دخوله السجن ، دون أن يكون هناك جانبٌ آخر أقل منه شأناً يمكن أن يفي بالغرض .

وتفسير ذلك أن النسوة اللاتي قطعن أيديهن يعتبرن وسطاً بين امرأة العزيز المتطرفة في مراودة يوسف عن نفسه ، والنسوة الأخريات اللاتي يجب أن يكون لهن دور في مراودة يوسف ولكنهن لم يتعرضن لتقطيع أيديهن.

وبما أن تقطيع الأيدي إنما تم بسبب امرأة العزيز التي خططت لذلك .

---

١ ـ النمل ٣٧

وبما أن لهذه المرأة ولنسوة المدينة الدور الأكبر في سجن يوسف .

لذلك لم يكن باستطاعة يوسف في سؤاله أن يتخطى نسوة المدينة ، ولم يشأ الخلق العظيم الذي فطره الله تعالى عليه أن ينصّ على امرأة معينة ولو كانت أهم سبب في دخوله السجن ظلماً .

وتأملْ هذه البساطة البارعة في قوله : « ما بال » ، أي ما شأن .

إنه يكتفي بالتساؤل وإثارة الاهتمام بالإشارة إلى موضع الزناد الكفيل بإشعال المسألة لأدنى مسٍّ له .

وكي نتبين بساطة قوله : « ما بال » فإن بإمكاننا أن نتأمل الفرق بين هذا القول وقول الملك خطاباً للنسوة وقد ثبت له بالدراسة الفاحصة للقضية براءة يوسف « ما خطبكنّ إذ راودتن يوسف عن نفسه » وإنّ دراسة القضية نفسها إنما تمت بناء على إشارة يوسف البسيطة المعبّرة .

ثم إنه لماذا يجيء على لسانه ﴿ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ ولا يجيء على لسانه مثلا : ما بال النسوة قلن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، إلى آخر ما قيل مما كان بإمكانه أن يسأل عنه . بدليل قول امرأة العزيز للنسوة ﴿فذلكن الذي لمتنني فيه﴾ مع أن هذه شهادة صريحة ليوسف ؟

والجواب على ذلك هو أن السؤال الذي لم يجيء على لسان يوسف يجعل امرأة العزيز هدفاً مباشراً ، وكان قصد يوسف جعلها هدفاً ، ولكن يوصلُ إليه بطريق غير مباشر .

ثم إن سؤالا كهذا يجعل نسوة المدينة على هامش الأحداث ، بينما هن في الحقيقة لهن دور إيجابي في زج يوسف في السجن ظلماً .

وهذا القول على لسان يوسف: ﴿قطعن أيديهن﴾ هكذا في صيغة فعّل الدالة على تكثير الفعل لتثير الاهتمام في زاوية معينة عناها يوسف ، إذ تجعل البحث في مسألته يبدأ من هذه الزاوية .

فيبحث الملك عن السبب في تقطيع النسوة أيديهن .

ويأتي بعد ذلك سؤال آخر هو : لماذا قطع النسوة أيديهن ؟

ويليه هذا السؤال : وكيف تم ذلك ؟

وفجأة نجد امرأة العزيز في قفص الاتهام هي وجماعة النسوة .

وإن لسان حال يوسف ليقول : إن ذنبي في نظر هؤلاء يتركز في أن الذي خلقني في هذه الصورة صرف عني السوء والفحشاء .

وإن في قوله عليه السلام: ﴿ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ لنكتة لطيفة ، فكأنه يقول :

إن كثيراً من الأمور في ذلك المجتمع فاسد العقيدة يوجّهها النساء وليس الرجال ! .

فإذا تحولنا إلى الجزئية الأخيرة على لسانه عليه السلام ﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾ فإنه يتبين منها ، حينما تصل إلى أذن الملك ، أن كيد النسوة وراء الزج بيوسف في السجن ظلماً .

وهي تبين رأي يوسف الواضح في القضية .

ولكنا نحس بأننا إزاء نفس مؤمنة مطمئنة إلى أن ما أصابها لم يكن ليخطئها .

نتبين هذا الإيمان والاطمئنان من صيغة المبالغة « عليم » ومن إيثاره للفظ الرَّب الذي يدور استعماله في سورة يوسف ، وقد سبق أن أوضحنا هذا ، حينما يكون هناك رضاً واعتراف تام بإنعام المُنعم .

وإنّ لضمير المتكلم في « ربي » لدوراً بعيد الدلالة في تعميق مفهوم الإيمان والاطمئنان في نفس يوسف عليه السلام وإن لسان حاله ليقول : إن ربي الذي جعل لكيد النسوة ، وقتاً من الأوقات ، سلطة على . لن يتخلى عني وسيثيبني جزاء صبري ورضاي بقدره على .

وهكذا يتضح أنه إذا كنا وقفنا مشدوهين أمام رفض يوسف الخروج من السجن حينما طلب الرسول ، بأمر سيده ، منه ذلك ، فإنّه وقد اتضح

السبب وثبتت براءة يوسف وهو في السجن أمام الملك بحضور النسوة ، يتبين أي درس عظيم يلقيه علينا يوسف عليه السلام ، وأنه واجب على كل مسلم أن يدفع قدْر الطاقة التّهم عن نفسه وجوب ابتعاده عن مواقفها .

« قال عليه السلام : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم(١) » .

وإن رحمة الله تعالى هي التي جعلت هذا الملك العادل ذا المشاغل الجمة بالضرورة يدرس هذه القضية بنفسه بإنعام ، وانتهى إلى وجه الحق فيها .

وكان لحبه للحق صريحاً كل الصراحة في خطابه للنسوة وامرأة العزيز ، متأسياً بأدب سيدنا يوسف وخلقه العظيم في توجيه الخطاب إلى كل النسوة وفيهن امرأة العزيز ﴿ ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ .

وواضح أن جماعة النسوة في جوابهن ، لا يرفضن حقيقة مراودتهن ليوسف التي أشار إليها الملك صراحة ، بل يسكتن عنها ، وفي السكوت اعتراف .

وفوق ذلك هنّ يثبتن براءة يوسف ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ .

وإن لحرف الجر « من » دوراً بعيداً في نفي السوء ، فنفي الجزء أبلغ من نفي الكل . وإنا لنجد نوعاً من التوافق في لفظة « سوء » التي جاءت على لسان النسوة ، وفي قوله تعالى عن يوسف: « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء » وقد عرفنا السوء بأنه « الاستجابة النفسية للإغراء »(٢) .

وتوجت براءة يوسف بشهادة امرأة العزيز على نفسها وشهادتها ليوسف عليه السلام . قال تعالى : ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ .

---

١ ـ البحر المحيط ٣١٦/٥

٢ ـ في ظلال القرآن ١٠٣/١٢ :

إن امرأة العزيز تنعت يوسف بأنه صادق ، وهو نعت موافق لما جاء على لسان الساقي « يوسف أيها الصديق » فهنا تواتر في نظرة البشر الواحدة ، لصدقه عليه السلام ونستطيع أن نخرج بدرس عظيم من هذه النهاية السعيدة ليوسف عليه السلام وللنسوة وامرأة العزيز هو أن الحقّ أحقّ أن يُتّبَع ، وأن العودة إلى الحق فضيلة ، لا فرق في ذلك بين جليل الأمور وهيّنها .

آيتـان تعقيبيتان :

والآن إلى الآيتين اللتين ذهب البعض إلى أنهما جاءتا على لسان يوسف والبعض الآخر أنهما على لسان امرأة العزيز ، قال تعالى : ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وما أُبرِيء نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم﴾ .

وفي سبيل تبيين الذي جاءت على لسانه الآيتان نود أولا تأمل هذا القول « لم أخنه » .

فإن كان الكلام على لسان امرأة العزيز فمعنى الخيانة هنا ، في ضوء اعترافها الصريح أنها الاستمرار في الافتراء على يوسف .

وإن كان الكلام على لسان يوسف فمعنى الخيانة هنا في ضوء ما قصه القرآن الكريم من مراودة امرأة العزيز واستعصام يوسف وصرف السّوء والفحشاء عنه أنها خيانة العزيز في أهله .

ونجد أنفسنا بعد ذلك ملزمين بتأمل الجار والمجرور « بالغيب » من قوله تعالى : ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ .

فما معناهما في ضوء السياق إن كان القائل امرأة العزيز ؟

معناهما أنها في تلك اللحظة التي يغيب فيها يوسف عن حضرة الملك ، لا تقول إلا بالحق ولا تستمر في الافتراء عليه .

وما معناهما إن كان القائل يوسف ؟

معناهما أنه بمن الله وفضله . ولصرف الله تعالى السوء والفحشاء عنه ، كان بعيداً عن التورّط في خيانة العزيز الذي ائتمنه على أهله .

وفي ضوء هذا المفهوم نتساءل : لوفرض أن هذا القول : ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ جاء على لسان امرأة العزيز التي سبق أن اتهمت يوسف أمام زوجها بأنه أراد بها سوءاً ، فهل معنى ذلك أنها لو استمرت بحضرة الملك في اتهامها ليوسف ، فإن ذلك يعني أن اتهامها ليوسف بغيبته أخطر شأناً من اتهامها له بحضرته ؟

والواقع أن اتهامها له بحضرته ، أخطر أنواع الاتهام والكذب .

ولو ذهبنا إلى أن الجار والمجرور « بالغيب » جاء على لسان يوسف ، فإن ذلك يتمشى تماماً مع غيبة العزيز المتكررة ورعاية يوسف للأمانة .

وإن في القول بأن امرأة العزير هي القائلة : « ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب » إرغاماً لجملة « أخنه » على أن تعني الاستمرار في الاتّهام ، مع أن معناها الأصلي واضح ، وارتباطها بنوع معين من الخيانة ، خيانة الأهل بيّن ، وهو ما يتمشى تماماً مع الرأي الذي يقول بأن يوسف هو الذي جاء على لسانه هاتان الآيتان(١) .

وننتقل إلى الجزئية الأخيرة في الآية الأولى : قال تعالى ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ .

إن معنى هذه الجزئية ، على افتراض أن امرأة العزيز صاحبتها ، أن الله عز وجل لا يمكن أن يسدد في النهاية ولا يوافق كيد الخائنين الكاذبين ، وإن كان ظاهر الجولة الأولى في صالحهم .

وهنا نتساءل : علام يدل هذا ؟ هذا يدل على أن امرأة العزيز تحوّلت

---

١ ـ ان هناك مسألة مهمّة استطرادية تترتب على هذا الرأى وهى أن جملة «ليعلم» بصيغة المبنى للمعلوم فى قوله تعالى:«ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب» اشارة أكيدة الى أن عزيز مصر كان مازال على قيد الحياة ، وهى آخر اشارة فى سورة يوسف الى هذه الشخصية .

فجأة إلى شخصية القمة في التدين – ولا يخفى أننا في مجتمع غير ديني أساساً وأن هذه المرأة أخذت في طرفة عين ، ودون سابق إنذار ، تستقي من أصفى المنابع الدينية وأعلمها بالواحد المعبود .

وهل كانت امرأة العزيز ، من الوجهة الدينية مهيأة لأن يصدر منها كلام كهذا ؟

وكي نجيب على ذلك نود تبيين بعض الجوانب فنقول أولا وقبل كل شيء : ليس بخاف أن امرأة العزيز كانت تعتبر واحدة ممن يمثلن الطبقة الراقية في ذلك المجتمع غير الديني وغير صحيح العقيدة . وإذا كان المجتمع بصفة عامة هذا وضعه ، فالمعروف أن الطبقة الراقية المترفة أكثر من غيرها انغماساً في الشهوات وابتعاداً عن الكمية الدينية الأقل من القليل التي وصلت إلى القوم في صورة من الصور .

وصدق الله تعالى إذ يقول في كتابه العزيز : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾(١) .

ولا نتبين إلا الشيء الطفيف من الآثار الدينية في القول الذي يمثل الإشارة الدينية الوحيدة على لسان النسوة ، وهن على كل حال في حكم صواحب الطبقة المترفة ، قال تعالى : ﴿ وقلن حاش لله ما هذا بشراً ﴾ و ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ .

ولا يخفى أن الجزئية التي نحن بصددها ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ تمثل مستوى دينياً سامياً أعلى ما يكون التسامي ، فهل كانت امرأة العزيز المترفة وهي من الطبقة الراقية ، مستعدة لأن يصدر منها كلام كهذا ؟

إن هذا يدفعنا لتتبع المراحل التي مرّت بها امرأة العزيز ، من هذه الزاوية بالذات فنقول :

إن شراء عزيز مصر ليوسف ، الغلام الصغير ، يعتبر نقطة تحول في حياة امرأة العزيز .

---

١ ـ الإسراء : ١٦

لقد كان أمل العزيز في يوسف كبيراً بأن ينفعهما مستقبلا أو يتخذاه ولداً لو أكرمت المرأة الإكرام الذي يليق بمن كان مثل يوسف صفحة بيضاء نقية . خاصّة وأنهما ليس لهما ذرية .

ومعروف أن يوسف قضى فترة من الزمن طيبة في منزل العزيز قبل أن يبلغ مبلغ الرجال .

ونستطيع أن نفهم من سجل حياة يوسف عليه السلام العاطر ، في كل مراحل حياته ، أنه في بيت العزيز ، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال ، كان يطبق تعاليم الشريعة الإبراهيمية التي أشربت بها روحه في بيت يعقوب والده نبي الله .

ولم تكن هذه المرأة مستعدة لأن تستفيد من الغلام الصغير الذي يعتبر بالنسبة لها واحداً من أطفالها لو كان لها أطفال . ولم يكن يوسف . في هذه المرحلة المبكرة جداً من عمره ، يعي بوضوح ويقوم فعلا بالدور الذي قام به في السجن مع الفتيين ، ذلك الدور الذي نظنه يقوم به مع غير الفتيين .

ولم تكن هذه المرأة المترفة ، في ذلك المجتمع غير الديني ، والتي تعني بزينتها شأن نساء طبقتها وعصرها ، أكثر من عنايتها بأي شيء آخر ، مستعدة أن تستفيد من يوسف ، لو افترضنا أنه وَعَى دوره قبل الأوان .

بل من الجائز أن نفهم ، أن امرأة العزيز منذ أن وقعت عيناها على الغلام الصغير يوسف ، وبحكم بقائه معها في البيت وهو الذي لم يبلغ الحلم ، قد هيأت نفسها لما قامت به في المستقبل فعلا من مراودة يوسف عن نفسه .

إذن نستطيع أن نفهم أن امرأة العزيز حين بلغ يوسف أشده لم تكن مهيأة لأن تستفيد روحياً منه .

فإذا سرنا مع المرأة في المرحلة التي بلغ فيها يوسف أشدّه ، فإن موقفها من عدم الاستفادة الروحية منه أكثر وضوحاً .

ونظراً لموقف يوسف الواضح من مراودتها وطعنها في عزتها الآثمة أمام

زوجها ، فقد كانت بالضرورة أكثر بعداً عن الاستجابة والإفادة من الدّروس الروحية الدينية التي يلقيها دائماً وأبداً يوسف عليه السلام .

وإن موقفها هذا في عدم الاستجابة قد ازداد رسوخاً بعد قول النسوة عنها ما قلن ، ودعوتها لهن ، وخروج يوسف بأمرها عليهن ، وتحوّلها من التصريح بالمراودة إلى الأمر الواضح الصريح ، وموقف يوسف المعروف منها .

وأخيراً صرف الله تعالى كيد النسوة عن يوسف ، ولعل ذلك بابتعاد مكانه عنهن ، وحكم عليه بالسجن ظلماً ، وانقطعت بذلك كل صلة بين يوسف وامرأة العزيز . دون أن تستفيد منه روحياً أي شيء ، لأنها باختصار كانت وراء هواها .

ونبيء يوسف عليه السلام في السجن ، كما سبق أن أشرنا ، وأخذ يدعو إلى دين الله تعالى .

وظل يوسف في طريقه وتظل المرأة في طريقها الذي لا يلتقي بطريق يوسف مطلقاً ، حتى نجدها أمام الملك ، ويفاجئها هي وجماعة النسوة بالقول على لسانه : ﴿ ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ ؟

ويعترف النسوة ببراءة يوسف وتعترف امرأة العزيز في كلام موجز مركّز بأنها هي الآثمة وبأن يوسف من الصّادقين .

فهذه المرأة ، في هذا الموقف الذي لا تحسد عليه ، ولعلها تمنت لو أن الأرض انشقت وابتلعتها والتي كان جوابها على سؤال الملك الغاية في الإيجاز ، هل تستطيع أن تتحول فجأة وكأنها خطيب من أكثر رجال الدين علماً وتقوى كي يجيء على لسانها هاتان الآيتان اللتان تعتبران في سورة يوسف من المواقف التي أطالت الشخصيات الحديث فيها ؟

إننا نقول بكل اطمئنان : إن امرأة العزيز من الوجهة النفسية ، إضافة إلى الوجهة الدينية ، لم تكن مستعدة ، مطلقاً بعد اعترافها أن تنبس ببنت

شفة فضلا عن أن يصدر عنها القول الذي تضمنته الآيتان اللتان هما أقرب لكلام نبي من أنبياء الله تعالى منه إلى كلام أيّ مخلوق آخر .

ونستطيع أن نقول : إن امرأة العزيز بعد اعترافها الموجز آثرت الانزواء فالاختفاء بعد ما تخلصت باعترافها إلى حد ما من علة وخز الضمير التي أقضّت مضجعها وأقلقت راحتها .

وما دامتْ امرأة العزيز ليست هي التي جاء على لسانها هذه الآية : ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ فإن ذلك يعني بالضرورة أن القائل هو يوسف عليه السلام .

فلنتأمل الجزئية الأخيرة في ضوء هذا الرأي الأخير .

هذه الجزئية ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ تتمشى تماماً مع التجربة الصعبة التي مر بها يوسف مع امرأة العزيز والنسوة ، مع النهاية السعيدة بثبوت براءته عليه الصلاة والسلام .

وبما أن هذه الجزئية معطوفة على سابقتها ﴿ذلك ليعلم أن لم أخنه بالغيب﴾ ففي هذه الحال علينا أن نعيّن المقصود من اسم الإشارة « ذلك » إذ المعنى والله أعلم : ذلك الإصرار منّي بأن يسأل الملك عن شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب وهو الذي ائتمنني على أهله وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، أي لا يسدده ولا يوفقه ولا يباركه في النهاية .

ولعله اتضح أن كلاماً كهذا ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ إنما يصدر من نبي لله رب العالمين ، وأنه يمثل زبدة التجربة القاسية التي مرّ بها مع امرأة العزيز والنسوة .

إن هذه الجزئية على لسانه عليه السلام . تصور لنا العاقبة الوخيمة التي تنتظر كلّ من تسوّل له نفسه أي نوع من أنواع الخيانة .

إن الخيانة هنا ، وإن كانت تعني أساساً خيانة المرء في أهله ، إلا أن التعبير ينطبق على كل أنواع الخيانات بلا استثناء .

ونود الوقوف عند لفظ الجلالة «الله» فلماذا لم يأت على لسانه مثلا : وأن ربي لا يهدي كيد الخائنين ؟

والجواب على ذلك أن يوسف الذي صرف الله تعالى عنه السوء والفحشاء، والذي عصمه الله تعالى بمنّه وفضله إنما يريد أن يدعو الآخرين إلى طريق الفلاح وينبه السادرين في غيهم إلى الطريق الخاطيء الذي يسيرون فيه ، فيجعل كلامه الذي يخصّ بالدرجة الأولى الآخرين ، متجهاً إلى العموم .

أوليس هذا القول: ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ يتعلق بالآخرين الخائنين ؟

وهنا نجد لفظ الجلالة « الله » يتلاءم مع هذا العموم .

وسنتبين في الآية التالية أنه عليه السلام يؤثر قوله: « ربي » في الموضوع الذي له عَلاقة مباشرة به .

وهناك مسألة مهمّة نتبينها في هذه الجزئية ، هي التواضع الجمّ الذي فطر الله تعالى عليه يوسف عليه السلام ، فهو هنا لا يتكلم عن نفسه ، ولا يجعل النصر الذي تحقق له بإرادته تعالى موضع درسه . ولكنه تواضعاً منه يجعل الآخرين الذين لم يتأسوا به ، ولم ينتفعوا من خلقه العظيم موضع ذلك الدرس .

والذي يجعل هذه اللفتة الكريمة ذات قيمة ، الغاية في العِظَم ، هي أن الجزئية الأولى من الآية خاصة بيوسف والعزيز وامرأته ، أما الجزئية الثانية فإنه عليه السلام يختفي فيها تماماً ، وهي ذات الدرس العظيم الذي يلقيه يوسف المتواضع ..

وإذا كان التواضع في الجزئية الثانية مفهوماً ، فإنه ملموس باليد في الآية التالية :

قال تعالى على لسانه: ﴿ وما أُبرِيء نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم ﴾ .

الآية بجزئياتها الثلاث تفيض بالتواضع الجم .

فهذه الجزئية ﴿ وما أبريء نفسي ﴾ يتحدث فيها عن نفسه ، وكأنه وهو نبي الله المعصوم ، لا يبريء نفسه ، ولا يغتر بهذه النفس ، التي عرفنا شيئاً من طهرها وصفائها ، طرفة عين . ومصدر ذلك كله الاعتماد الكلي المطلق على الله عز وجل ، والأدب الكامل والخلق العظيم .

إن هذه الجزئية تتمشى في جوهرها مع قوله تعالى: ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾(١) .

وستتبين أن الجزئيتين التاليتين تستقيان من النبع الخالد نفسه .

فإلى الجزئية التالية ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ﴾ .

وواضح أن صدر الجزئية ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ عام يشمل جنس النفس .

ولكن بما أننا عرفنا أن الله تعالى صرف عن يوسف السوء والفحشاء لأنه من عباد الله المخلصين ، لذا فإن نفسه لا تخضع لهذا العموم .

فلماذا تخضع إذن ؟

لعموم آخر يلفه الخلق العظيم والتواضع الجم نجده في عَجُزِ الجزئيّة ﴿ إلا ما رحم ربي ﴾ أي نفساً رحمها ربي فأنقذها وصرف عنها السوء والفحشاء .

وهذا العَجُزُ نفسه يشكل قاعدة عامة تنطبق على كل نفس هذه صفتها إضافة إلى نفس يوسف عليه السلام .

وإذا أردنا تعليلا لهذه القواعد العامة والحكم الخالدة على لسانه عليه السلام ، فلا نجد إلا اليقظة التامة وعدم الغفلة . والشكر الدائم للمنعم في صورة هذا التواضع الحميد .

وهذه الجزئية بشقيها : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ﴾

---

١ ـ النجم ، ٣٢

تضع قاعدتين عامتين تخرج نفس يوسف من أولاهما وتدخل في ثانيتهما .

والذي يجعل نفس يوسف تدخل بقوة في ثانيتهما شيئان : لفظ الرب وضمير المتكلم .

فهذا اللفظ جزءٌ لا يتجزأ من معجم يوسف عليه السلام اللغوي .

ومع أن القاعدة عامة ، إلا أن يوسف يعتبر محور هذه القاعدة ، ومن هنا حسن استعمال لفظ الرّب ، تماماً كما حسن في العموم على لسان يوسف في مناسبات أخرى ، استعمال لفظ الجلالة « الله » كما سبق أن أوضحنا

فإذا تحولنا إلى الجزئية الأخيرة من الآية « إن ربي غفور رحيم » نتبين إضافة إلى لفظة رَبّ الحبيبة إلى نفس يوسف ، لفظة « غفور » التي تتمشى تماماً مع قوله: « إن النفس لأمارة بالسوء » .

فهنا إشارة إلى أن رحمة ربه وسعت كل شيء .

كما نتبين أن لفظة « رحيم » تتمشى تماماً مع قوله: ﴿إلا ما رحم ربي﴾ .

فهنا شكر لله تعالى من يوسف الذي شملته رحمة ربه والذي يعتبر محور القول على لسانه: ﴿إلا ما رحم ربي﴾ ، وأن هذه اللفظة تشير من طرف خفي إلى أنّه عليه السلام لم يستعصم حينما راودته امرأة العزيز والنسوة عن نفسه ، إلا بصرف الله تعالى عنه السوء والفحشاءَ وتداركه تعالى برحمته .

وهكذا يتضح أن الآية بجزئياتها الثلاث قمة في تواضع يوسف عليه السلام وأدبه . وفي التلاحم الفني أيضاً .

ولعلك أدركت أن منهجنا في تأمل الآية الثانية قد اختلف عن منهجنا مع الآية الأولى ، فلم نفترض أن امرأة العزيز هي التي جاءت الآية على لسانها ، وبالتالي لم ننظر أساساً من زاوية أن القائل هو امرأة العزيز ، اكتفاءً بما قلناه في الآية الأولى واقتناعاً بأن امرأة العزيز لم تكن وقتاً من الأوقات مهيأة لأن يصدر منها معان كهذه ، وأن المهيأ لأن تجيء على لسانه في ذلك المجتمع هو يوسف عليه السلام فقط . والله أعلم .

وبناءً على هذا نستطيع أن نفهم أن هذه المعاني إنما فاضت بها نفس يوسف بعد أن وصله في السجن نبأ براءته واعتراف النسوة وامرأة العزيز بحقيقة موقفهن .

الملك يطلب يوسف كي يستخلصه لنفسه :

لم يكتف ملك مصر هذه المرّة بما طلبه في المرة الأولى ؛ إذ صرّح بأنه سيستخلص يوسف لنفسه .

فإلى آيات هذا المشهد الذي يتضح فيه موقفه عليه السلام وإنعام الله تعالى عليه تمهيداً للمرحلة الثالثة الحادثة الرخاء في حياته .

قال تعالى: ﴿وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ، قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نُصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ .

ونودّ أولا تأمّل هذا القول على لسانه عليه السلام: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ الذي يمكن أن نتبين منه ما يلي :

أولا : إن يوسف عليه السلام ، نبي الله تعالى ، الكريم الخلق ، ليطلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض .

وستتبيّن أنه أصبح عزيز مصر ، فمعنى هذا أن ذلك المنصب شاغر ، وإلا لما خطر على النبيل يوسف أن يرشّح نفسه له .

وليس مهمّاً أن يكون العزيز حيّاً أو ميتاً إنما المهم أن منصبه بالتأكيد شاغر .

وقد سبق أن استنتجنا من جملة يعلم ، شريطة القراءة بصيغة المبني للمعلوم ، في قوله تعالى على لسان يوسف : «ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب» أن العزيز حي يرزق .

ثانياً : نتبين من الطريقة التي يرشّح فيها يوسف نفسه لهذا المنصب عزّة الإسلام لله رب العالمين .

إنه لا يجيء مطلقاً على لسانه مثلا « لو جعلتني على خزائن الأرض » ولكن ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ .

ثالثاً : على الرغم من الإساءة البالغة التي لحقت بيوسف في مصر حتى هذا اليوم الذي أُخرج فيه من السجن ، فقد كان عليه السلام دائماً ذلك الرجل الذي همّه أن يوصل الرسالة التي أُؤتمن عليها ، ويهتبل كل فرصة ، كي يلقي ببذور الخير في كل تربة حل بها .

لقد كان الناصح الأمين لرفاقه في السجن ، ولم يكن الفَتيَانِ إلا رمزاً لسواهما .

وحينما طلب إليه أن يعبر رؤيا الملك لم يكتف بتعبير الرؤيا بل ضمن ذلك نصحه الخالص . ولم يبخل بما علمه الله تعالى إياه عن طبيعة العام الخامِسَ عَشَر .

والآن وقد خرج من السجن يجد نفسه مرفوع الرأس أمام ملك البلاد الذي صرح بأنه سيستخلصه لنفسه وفتح بذلك ليوسف باب ترشيحه لنفسه للمنصب الذي يرتضى بالقول على لسان الملك خطاباً له : ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ .

وقد أيقن عليه السلام ، بما علمه الله تعالى أن العالم بأسره على باب مجاعة رهيبة ، وأنه ليس هناك شخص آخر يمكن أن يقود السفينة إلى بر النجاة بعون الله وتوفيقه ، سواه .

فهل ينتظر منه عليه السلام وهو الرجل الحريص على أن يؤدي أمانته على خير وجه أن يبخل على ذلك المجتمع الحريص على إخراجه من ظلمات الشرك إلى نور الإسلام بأن يحاول إنقاذه جهده من المجاعة التي تلوح في الأفق البعيد جداً والآتية لا محالة .

بطبيعة الحال لا يمكن أن يبخل عليه السلام بشيء في صالح الإنسانية ، لأنه يستمد من هذا المنصب قوة أدبية تعتبر خير عون لقوّته الدينية .

ونستطيع أن نفهم بكل بساطة ، أنه عليه السلام وقد مكّن الله تعالى له بهذا المنصب في أرض مصر ، قد استطاع بعون الله وتوفيقه أن يوطد أركان الإيمان في البلاد وأن ينشر راية العدل .

ومعنى هذا أن المنصب الذي رشح يوسف نفسه له ، لم يكن وقتاً من الأوقات غاية لذاته ، ولكنه كان وسيلة للغاية الحقيقية لكل أنبياء الله تعالى ورسله ، وهي الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده ونبذ الأرباب المتفرقين . وقد نجح عليه السلام . بمن الله وفضله ، في ذلك النجاح كله .

وإن يوسف عليه السلام ليلقي علينا نحن المسلمين درساً بليغاً نافعاً هو أن الواجب على كل ذي منصب من أمة الإسلام في أيّ مكان أن يستفيد من منصبه وقوّته الأدبية والمادية جهد الطاقة ، لإعزاز دين الله تعالى الذي ارتضى لعباده .

رابعاً : من الواضح أن يوسف عليه السلام حينما قابل ملك مصر لم يبدأ بالكلام ، فضلا عن ترشيح نفسه للمنصب المذكور ، ولكن بعد أن آنسه الملك بالكلام وقال له بصريح العبارة كما جاء في القرآن: ﴿ إنك اليوم لدينا مكينٌ أمين ﴾ بمعنى أنك اليوم عندنا ذو مكانة ، ومؤتمن على كل شيء ، لأنك ضربت بعفتك المثل الأعلى في حفظ الأمانة .

وعند ذلك فقط جاء على لسانه عليه السلام قوله تعالى : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم ﴾ .

خامساً : إن يوسف عليه السلام ، حينما عبّر له الملك صراحة عن مكانته العالية عنده ، وائتمانه له على كل شيء . ورشح نفسه لما يمكن أن يسمى بمنصب وزير التجارة أو التّموين أو الزراعة أو الاقتصاد ، لأن الفروق الدقيقة لم تكن آنذاك واضحة(١) إنما يضرب لنا أعلى الأمثلة في

---

١ ـ بل يمكن ان يكون فى منصب من يلقب حاليا برئيس الوزراء .

التضحية ونكران الذات . وتعمد التصدي لعظام الأمور وخطيرها .

إن هناك الكثير من المناصب التي كان بإمكانه عليه السلام لو لم يكن نبي الله ، والقمة في التضحية والإخلاص أن يختار واحداً منها . ولكنه صاحب رسالة ، وبإلهام من الله تعالى ، عن طريق رؤيا الملك التي عبّرها ، على علم تامّ بحقيقة المجاعة الرهيبة الآتية لا محالة ، وكان على يقين من أنه ليس هناك الرجل الكفء لعمل خطير كهذا ، وأصعب منه الرجل الذي يجمع بين الكفاءة والأمانة .

وكان بإلهام منه تعالى على علم تام بأن هناك رجلا واحداً فقط هو الحفيظ العليم ، الذي يمكن أن يناط به ذلك العمل الخطير ، هذا الرجل هو يوسف عليه السلام نفسه لذلك حينما واتته الفرصة لم يتردد في ترشيح نفسه لذلك المنصب الذي يجعله مسؤولا أمام الله تعالى عما قدّم من عمل إزاء المجاعة الرهيبة التي ستهدّد أمما وأمماً .

وواضح أنه يجيء على لسان يوسف ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ هكذا بصيغة الجمع في « خزائن » وليس بصيغة المفرد : خزينة . وقد قيل :

• على قدْر أهل العزم تأتي العزائم(١) •

ولا يمكن أن ننسى مطلقاً أنه عليه السلام كان على يقين من أنه بسبب حفظه وأمانته ، سيكسب قلوب القوم المشركين ، وبذلك يتسنى له أن يدعوها إلى عبادة الله وحده ونبذ الأرباب المتفرقين ، وإنا لواثقون بأن هذا هو ما فعله عليه السلام وأنه نجح في ذلك نجاحاً كبيراً .

قال تعالى في سورة غافر(٢) ﴿ ولقد جاءكم يوسفُ من قبلُ بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ .

---

١ ـ للشاعر المتنبي .

٢ ـ آية : ٣٤

إنه عليه السلام ، لو كان وقتاً من الأوقات يسعى لنفع شخصي ، لكانت هذه أولى المناسبات لأن يختار عملا من أقلها إتعاباً وأكثرها إفادة ، وبالتالي يستطيع أن ينفع نفسه وآل يعقوب إن شاء ، ويجنّب نفسه وإياهم خطر سبع السنوات الشداد .

ولكنه عليه السلام وهو صاحب الرسالة ، كان دائماً الشمعة التي تنير للآخرين الطريق ، مع ما يكلفها ذلك من عنت ومشقة حتى يخرج الزرع شطأه فيؤازره فيستغلظ فيستوي على سوقه .

سادساً : إن يوسف عليه السلام على الرغم من أنه يجيء على لسانه « حفيظ » و « عليم » بصيغة مبالغة اسم الفاعل ، إلا أننا نتبين أنه أعطى نفسه بعض ما تستحق وليس كل ما تستحق .

وذلك أن لفظ « حفيظ » ليس سوى تعبير عن امتنانه وشكره لله تعالى على صرف السوء والفحشاء عنه ، فتسنى له أن يضرب المثل الأعلى في الأمانة والحفظ .

وليس هناك أمانة وحفظ ، يمكن أن يكونا وقتاً من الأوقات ، أصعب من قبض يوسف على جمر الدين إزاء إغراء النسوة له ، وهو الفتى غير المتزوج.

إن حفظه لخزائن الأرض أهون بكثير وكثير من حفظه لعرض النسوة .

وإن لفظ « عليم » ليس سوى تعبير عن امتنانه وشكره لله تعالى على ما أنعم به عليه من عِلمٍ لدنيٍّ .

لقد كان أعبر الناس للرؤيا واستطاع أن ينبيء الفتيين في السجن دائماً بتأويل طعامهما قبل أن يأتيهما .

كما أعطاه الله تعالى علم الأعوام الخمسة عشر القادمة إلى غير ذلك من علم .

وإن علمه بطريقة معالجة الأمور في السنوات القادمة من أهون أنواع العلم الذي حباه الله تعالى إياه .

من كل ما سبق يتضح ما سبق أن قلنا من أنه عليه السلام يعطي نفسه بعض ما استحق وليس كل ما استحقّ .

كما يتضح أن لفظ « حفيظ » على لسانه ، له قاعدته الصلدة الثابتة باعتراف النسوة وامرأة العزيز بأمانته ، وأن لفظ « عليم » على لسانه له قاعدته الصلدة الثابتة أيضاً بصحة كل ما أدلى به في السابق من علم ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ .

وإن هذا القول على لسانه عليه السلام : ﴿إني حفيظ عليم﴾ ليس من باب تزكية النفس المنهى عنه ، إنما هو من باب إظهار فضل الله تعالى ونعمه كي يكسب بحقّ قلب من يخاطبه .

وواضح أننا تكلمنا عن يوسف عليه السلام من زاوية بقائه في مصر ، فقارنا بين الأعمال التي كان بإمكانه أن يختار منها فآثر جليلها وأعظمها خطراً . ولم نتساءل بعد : لماذا لم يخطر بباله عليه السلام وقد واتته الفرصة أن يستأذن في العودة إلى أبيه ووالدته وآل يعقوب عليه السلام ؟

والجواب على ذلك : إنّها النبوة وإنه عب ء الرسالة الضخم على كاهله عليه السلام الذي يجعله متفرغاً للدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، مؤثراً لذلك على كل راحة ونفع شخصي .

ونستطيع أن نفهم من قوله عليه السلام : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ أن خزائن الطعام كانت منتشرة حينما وجدت الزراعة في تلك الأرض المنساحة التي تشقها المياه وتتفرع فيها ، وبالتالي فقد كان عليه السلام الحركة الدائمة والتّنقّل المستمرّ .

وبناءً على ذلك يمكن أن نقول : إن يوسف عليه السلام ، ضرب المثل الأعلى في الصورة الطيبة التي يمكن أن يكون عليها كل حامل رسالة من أمّة الإسلام في الجمع أحسن مايكون الجمع بين المصلحتين : الدينية والدنيوية معاً.

ويلاحظ أنه عليه السلام يجيء على لسانه « اجعلني على خزائن الأرض » ولا يجيء على لسانه مثلا : اجعلني مسؤولاً عن خزائن الأرض .

ونتبين من القول الذي جاء على لسانه أننا بصدد نفس أقل ما يقال عنها إنها نفس كبيرة يجري في دمها الإحساس التام بعزة الإسلام لله رب العالمين .

وليس بخاف أن ذلك اليوم مشهود بالنسبة له عليه السلام ، إذ انتهى فيه اختبار الله تعالى له بالابتلاء ، ليبدأ فيه اختباره بالنعماء .

وقد جاء تعقيباً على مرحلة الاختبار هذه بالابتلاء هاتان الآيتان ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ .

فإذا تأملنا الآية الأولى اتضح أنها تتصل بالجزاء الحسن في الحياة الدنيا لمن أحسن .

وإذا تأملنا الآية الثانية اتضح أنها تتصل بالجزاء الأوفى والأفضل في الآخرة لهذا المحسن بسبب إيمانه وتقواه .

فإلى الآية الأولى أولا :

قال تعالى : ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾ .

وبتأمل الجزئية الأولى ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ يتضح أنها هي التي سبق أن جاءت تعقيباً على توصية العزيز امرأته بإكرام مثوى يوسف .

قال تعالى : ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ .

وواضح أن هذه الجزئية تجيء في كل من المناسبتين بعد امتحان من الله تعالى ليوسف عصيب. وهذا يعني أن رحمة الله تعالى دائماً قريبة من المحسنين .

ومعناها في المناسبة الأولى : ومثل ذلك التمكين ليوسف في قلب العزيز مكنا له في قلوب الآخرين ، في بيت العزيز على أقل تقدير .

ومعناها في المناسبة الثانية ، ومثل ذلك التمكين ليوسف في قلب الملك مكنا له في قلوب المصريين .

ونتبيّن نوعاً من فرق بين لفظ الأرض في كل من المناسبتين .

إن يوسف في المناسبة الأولى بحكم كونه غلاماً صغيراً ، فقد كان تمكين الله تعالى له في أرض محدودة الرقعة ، لا تكاد تتعدى بيت العزيز بحال.

وقد اتسعت هذه الأرض بعد تعيين الملك له في منصب عزيز مصر .

وإن من الأدلة القوية على هذا أن الجزئية في المناسبة الأولى تقف عند لفظ الأرض مجرداً ولا تبين شيئاً من طبيعة هذه الأرض .

أما في المناسبة الثانية فتأتي مباشرة هذه الجزئية ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ بمعنى أنه عليه السلام يتخذ أي مكان يشاء منها منزلا ومحلاً .

كما جاءت في الآية هذه الجزئية بعد ذلك مباشرة ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ وهي تشكل قاعدة عامّة لرحمة الله تعالى التي يصطفي بها من يشاء من عباده ، ولكن هؤلاء العباد يجب أن يكونوا صالحين محسنين ، لأن لفظ الرحمة الذي تضمنته الآية مجانس للعباد الصالحين الذين من أهم خصائصهم أن قلوبهم رحيمة . وقد قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان(١) ﴾

ومعنى هذا أن من حقنا أن نفهم من هذه القاعدة العامة في هذه الجزئية التي جاءت في إحدى آيتي التعقيب على جزاء الله تعالى يوسف على إحسانه ، أنه عليه السلام هو المَعْنِيُّ أَوَّلاً بهذه الجزئية وهو محورها ويدخل بعد ذلك تحتها كل من كانت هذه صفته وحاله . خاصة وقد جاء في هذه الجزئية الأخيرة من الآية لفظ المحسنين ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ .

وقد كان نصيب يوسف من هذا اللفظ كبيراً ، فقد جاء خطاباً له على لسان الفتيين في السجن ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ .

وإن الجزئية نفسها جاء على لسان إخوة يوسف خطاباً له في القول على

---

١ ـ الرحمن ، ٦٠

لسانهم : ﴿ يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين ﴾ .

وجاءت اللفظة على لسان يوسف نفسه في قوله تعالى على لسانه : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

وعلى ذلك فالذي قلناه عن الجزئية السابقة من أن يوسف محورها نقوله عن الجزئية الأخيرة : ﴿ ولانضيع أجر المحسنين ﴾ وهو أنه عليه السلام المَعْنِيّ أوّلا ، ويدخل بعد ذلك تحتها كل من كانت هذه صفته وحاله .

وإن ما قلناه عن الجزئيتين يقال عن آية التعقيب الثانية ﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

إن هذه الآية تقرّر أساساً أن كل ما أنعم الله تعالى به في الدنيا على يوسف عليه السلام ، لا يقاس مطلقاً بما سينعم عليه الله تعالى به في الآخرة .

وإن هذه ولا شك قاعدة تنطبق على كل مؤمن يتقي الله حق تقاته ولا يموتنّ إلا وهو مُسلم .

وإن هناك مسألة مُهِمّة نودّ تبيينها هي أنه من موجبات المحسن بالمعنى الذي حدده القرآن على لسان يوسف ، وأنّه بمعنى التقوى والصبر ، أن يكون الإنسان محسناً لأخيه الإنسان .

إن الفتيين السجينين مثلا ، بالإضافة إلى تبينهما التقوى والصبر في شخصه عليه السلام فإنه قد أحسن إليهما ولسواهما الإحسان كله .

والشيء نفسه يقال عن الإخوة الذين جاء على لسانهم خطاباً ليوسف القول : ﴿ من المحسنين ﴾ .

والشيء نفسه أيضاً نستطيع أن نفهمه بالبداهة من قوله تعالى: ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ .

ومن قوله قبل ذلك ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ .

وتفسير ذلك هو أنه عليه السلام كان عند قوله خطاباً للملك : ﴿ إني حفيظ عليم ﴾ كما كان عليه السلام الأسوة الحسنة دائماً لكل خير . آثر راحة الجماعة على راحته وأخلص لهم النّصيحة .

ومعنى هذا أن يوسف عليه السلام في هذه المرحلة من حياته انتفع من إيجابيته ومن قدرته على الحركة الدائبة أحسن ما يكون الانتفاع في المجالين : الديني والدنيوي . فاستمال إليه كل القلوب .

ونستطيع أن نتمثل شيئاً من النجاح الذي تحقق له عليه السلام ، بسبب خلقه العظيم في نشر رسالة الإسلام .

وإن القرآن الكريم حينما يجيء فيه ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء﴾ فليس المراد بالأرض بطبيعة الحال التراب فقط الذي أمكن له أن يفترشه عليه السلام دائماً . إنما المراد بالدرجة الأولى النفوس التي أسرها بإحسانه ، والقلوب التي ملكها بمحبته ، وإخلاصه وتفانيه .

وكأن لسان حاله عليه السلام يقول لنا : ليس المهم الوصول إلى أمثال هذه المناصب ، إنما المهم الانتفاع بها والاستفادة منها لما فيه خير البشرية دينياً ودنيوياً .

وليس المهم هذه المساحات الشاسعة من الأرض التي يمكن للإنسان أن يتنقّل فيها ، إنما المهم قلوب أصحابها وأنفسهم . وإن أسر القلوب والنفوس رهين بالإحسان إليها ، في صورة الكلمة الحلوة والنّصيحة الخالصة النابعة من قلب صاف خال من الشوائب . وفي النفع الذي يقدّم عن طيب نفس ورضا خاطر .

وإنه عليه السلام ليضرب لنا بذلك المثل الأعلى في أداء حق النعمة بشكر المنعم بها في صور البر الكثيرة المعروفة .

وعموماً نتبين في آيتي التعقيب هاتين : ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾ ، ﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ ما نتبينه في قوله تعالى في سورة النحل(١) : « مَنْ عمل صالحاً مِن ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

---

١ ـ آية ، ٩٧

المرحلة الثّالثة والاخيرة في حياة يوسف عليه السلام
مرحلة اختباره بالنَّعْماء

بتعيين يوسف عليه السلام في منصب عزيز مصر ، تبدأ المرحلة الهادئة الرخاء في حياته عليه السلام .

والقرآن الكريم حينما تجيء فيه ابتداءً عن إخوة يوسف الذين غادروا الشام إلى مصر طلباً للطعام هذه الآية ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ فإن ذلك يعني أن هناك فترة زمنية تزيد بكل تأكيد على سبع السنين قد تخطتها الآية الكريمة .

هذه الفترة هي سبع سني الرخاء وشيء لا بأس به من سني الشدة ، لأن الإخوة لن يتجهوا إلى مصر زمن الشدة إلا بعد أن يذيع في الآفاق كرم عزيز مصر ، وإمداده لكل محتاج بكمية معلومة من الطعام ، وذلك بطبعه يستغرق شيئاً من الزمن وفي الإمكان أن نتخذ إخوة يوسف الذين قصدوه طلباً للطعام رمزاً لكل قاصد .

وحينما يكون عنده عليه السلام الاستعداد لإعطاء الإخوة كل مرة الكمية المحددة من الطعام ، فمعنى هذا أن عنده الاستعداد للقيام بالعملية نفسها مع كل طلب .

ومعنى هذا أن مصر أصبحت تُشَدُّ إليها الرحال من كل النّواحي . وكان يوسف في كل مرة يلبي طلب المحتاجين مع علمه القطعي بأن الفترة التي ستبقى فيها المجاعة متمكنة ليست قصيرة ، وطلب الطعام بمرور الأيام سيشتدّ ، ومع ذلك فقد كان مستعداً لأن يلبي كل الطلبات بدليل أنه أعطى إخوته طعاماً في الرحلة الثانية ، ولم يكونوا ليطلبوه في الثالثة لو لم يعلموا أنه ما زال يعطي .

والنتيجة التي نود أن ننتهي إليها من كل ذلك هي أنه عليه السلام في سبع سنوات الرخاء قد بذل كل ما كان بإمكانه أن يبذله في سبيل إنقاذ الإنسانية وليس الشعب المصري فقط ، من المجاعة الرهيبة التي لاحت له عليه السلام بالذات في الأفق البعيد .

ومعنى هذا أن سنوات الرخاء بالنسبة له ، كانت عملا دائباً وإخلاصاً وتضحية ، ولم تكن وقتاً من الأوقات راحة وتسلية .

وإذا كان هذا ما يقال عن سنوات الرّخاء فالذي يقال عن سنوات الشدة أكثر .

وكيف لا يكون يوسف كذلك ؟ وهو الذي لم يبخل في لحظة من لحظات الشدة على القوم المشركين بشيء مما علمه الله تعالى ، وكان دائماً الناصح الأمين للقوم ، وإن نصحه وإخلاصه سيكونان الغاية التي ليس وراءها غاية ، وقد أصبح ، وهو صاحب الرّسالة ، المسؤول الأول أمام الله تعالى ، وقد مكّن له في أرض مصر ، يتبوّأ منها حيث يشاء .

وإنا لنقول بكل اطمئنان وثقة : إنه عليه السلام ، بتمكين الله تعالى له في الأرض ، كان مظهراً من مظاهر رحمته تعالى بعباده ، فقد تمّ على يديه إنقاذ أرواح وأرواح ، وأجساد وأجساد (١) .

يوسف عزيز مصر ، واخوته في رحلتهم الأولى :

والآن مع آيات المشهد الأول :

قال تعالى: ﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون، ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ، فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ،

---

١ ـ الملاحظ انه حينما نجد أنفسنا مع يوسف في هذه المرحلة من حياته ، نتبين أننا قد بدأنا في النصف الثاني من السورة ، وكأنّ كل نصف عنى بحالة من الحالتين المتميزتين في حياته عليه السلاة والسلام .

قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ، وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون) .

ونستطيع أن نستنتج أنه عليه السلام قد ملأ على أحسن وجه المنصب الذي تقلده ، وجمع أحسن ما يكون الجمع بين لين الجانب والحزم .

إن لين الجانب نتبينه مثلا في قدرة كل طالب للطعام على الدخول على العزيز شخصياً ومؤانسة العزيز بدوره له بالحديث ، وبالحديث الطويل في بعض الأحايين ، فهذا هو الذي نفهمه من القول الذي جاء على لسان يوسف: (ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين) .

فلم يكن بمقدوره عليه السلام أن يطلب من الإخوة أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، لو لم يكن قد أفهمهم أن هذه المعلومات هي التي سبق أن أخذها منهم .

والإخوة هنا رمز لكل الذين يخاطبهم العزيز ، يوسف عليه السلام ، صاحب الرّسالة وحامل الأمانة .

يضاف إلى هذا إكرام العزيز الفائق لكل طالب للطعام ، وحسن معاملته في البيع ، ومساواته بين المشترين ، وقد جاء على لسانه (ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين) .

وإن الحزم نتبينه مثلا في إشرافه عليه السلام بنفسه على عملية بيع الطعام للمحتاجين .

وإن دخول الإخوة عليه في كل مرة وليس على سواه ، رمز لدخول كل طالب عليه .

ولو جاء الإخوة في أي وقت غير الوقت الذي جاءوا فيه فعلا لوجدوا العزيز نفسه هو المهيمن على الأمور .

كما نتبين الحزم في قطع العزيز خط العودة دون هذا الأخ على هؤلاء الإخوة ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ .

وواضح أن الإخوة وهم عشرة لم يستطيعوا تبيّن شخصية العزيز ، على الرغم من حديثه الطويل معهم ، وينبغي أن يكون لهيبة المنصب الذي يتقلّده عليه السلام دور فعال في ذلك .

ومع أنه يطلب من إخوته أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، ومع أن مس هذه المسألة بالذات موقظ لانتباه كل الإخوة ، إلا أن طريقة تنكير لفظ « أخ » وإفهام الإخوة أن هذه المعلومات مأخوذة منهم ، جعل اهتمام الإخوة ينصرف إلى الطلب ، وكيفية تلبيته لأن الحصول على الطعام مستقبلا متوقف على ذلك ، دون أن يخطر ببالهم مطلقاً التفكير في شخص العزيز ، لأن الأمور كلها في نظرهم تسير سيراً طبيعياً .

ونستطيع أن نفهم سببين ساعدا على ذلك :

السبب الأول : هو أنه عليه السلام في هذا المنصب الذي تقلّده ، إنما كان معروفاً بلقب « العزيز » وليس باسمه ، على الرغم من أن اسمه يسهل التلفظ به في ذلك المجتمع ، فقد جاء على لسان الشاهد مثلا ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ وجاء على لسان الساقي ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾ . ولكن يبدو أن العادة جرت بأن يشار إلى من يتقلد هذا المنصب بلقب العزيز وينادى به أيضاً .

فقد جاء عن النسوة قوله تعالى : ﴿ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا ﴾ .

والإخوة خاطبوا يوسف أكثر من مرة ، بقولهم : ﴿أيها العزيز﴾ . ولا يخفى أن لفظ « العزيز » يدل على المنزلة العالية الرفيعة التي يضع فيها المجتمع المصري من يتقلد هذا المنصب .

والسبب الثاني : هو أن اللغة التي يتكلم بها المصريون آنذاك غير اللغة

التي يتكلم بها آل يعقوب ، ومن هنا لم يكن بإمكان الإخوة أن يتغلغلوا في الحديث مع أفراد الشعب .

ومع أن تاريخه عليه السلام ، حتى تلك اللحظة ، كان معروفاً لأفراد الشعب ، إلا أن الإخوة ، وهم عشرة ، بجهلهم بلغة القوم ، لم يستطيعوا أن يفهموا شيئاً من أخبار العزيز دائماً .

وإنه عليه السلام حينما لا يكشف لإخوته عن شخصيته فإنما يفعل ذلك وكلّ ما فعله معهم بأمر مولاه عز وجل جزاء فعلهم السيء معه بإلقائه وهو الغلام الصغير في غيابة الجب بقصد التخلص منه ، ولو أدى ذلك إلى هلاكه .

ونشير إلى دليلين فقط :

أولهما : إيحاء الله تعالى ليوسف حينما أجمع الإخوة أمرهم بإلقائه في الجب بأنه سينبّئهم بأمرهم هذا .

قال تعالى : ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ .

فقد كان بإمكانه عليه السلام هذه المرة أن ينبئهم بأمرهم هذا . وحينما لا يفعل فذلك دليل أكيد على أنه تعالى لم يأذن بذلك .

وثانيهما : لولا إلهامه تعالى ليوسف عليه السلام حينما وضع صواع الملك في رحل شقيقه أن يجعل فتيانه يسألون الإخوة عن نوع الحكم الذي يرتضون تطبيقه بحقّ سارق الصواع ، الذي يوجد عنده ، لما أدت عملية وضع الصواع في رحل الشقيق الغاية المرجوة منها ، فإن نجاحها مرتبط بهذا السؤال وبالحكم الذي أصدره الإخوة بحق من يوجد عنده الصواع ، قال تعالى : ﴿كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم﴾ .

وواضح أنه عليه السلام يعامل إخوته أحسن معاملة ويكرمهم كل الإكرام.

ولعله أوحى إلى غلمانه أن يُعنَوْا بهم عناية خاصة كي يستميل قلوبهم فيجتهدوا في مراودة يعقوب أن يبعث معهم أخاهم .

وقد لعب ذلك الإكرام دوره في أنفس الإخوة ؛ واتضح ذلك في القول على لسانهم عن العزيز : ﴿ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير﴾.

والمراد أن العزيز كريم بطبعه ، ويعتبر كيل البعير الواحد شيئاً هيّناً للغاية في نظره .

عقاب يوسف لاخوته نفسي :

وإذا كان هؤلاء الإخوة قد عرّضوا حياة يوسف للخطر بوضعه في غيابة الجب ، وكانوا – بإذنه تعالى بطبيعة الحال – سبباً في الأزمات النفسية التي تعرض لها في الجب ، ومع السيارة ، وبالبيع في سوق المماليك ، وفي بيت العزيز ، وفي السّجن ، فإنه عليه السلام لم يشأ وقتاً من الأوقات أن يعاقب هؤلاء الإخوة حِسّيّاً ، أو يعرض حياة واحد منهم لشيء من الخطر الذي عرضّوه له بوضعه في غيابة الجب . إنما أراد أن يعاقبهم نفسياً .

إنه عليه السلام يعطيهم من الطعام ما يعطي سواهم ، ويكرمهم كما يكرم سواهم وزيادة ، ولكنه يشترط عليهم إن أرادوا الطعام مرة ثانية ، أن يثبتوا أنهم غير جواسيس ضِدّه ، وأنهم صادقون فيما قالوا ، فإن عليهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم الذي أشاروا إليه في معرض حديثهم معه .

إنه يعرف يقيناً تمسك يعقوب والده بشقيقه وهذه أول ورطة نفسية يضعهم فيها ، والذي يدل عليها ورضا يوسف عن إيقاعهم فيها القول الذي جاء على لسانهم : ﴿سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون﴾ .

فالمراودة تدل على المجهود العظيم الذي كان على الإخوة أن يبذلوه في مفاتحة يعقوب في هذا الموضوع أوّلا ، والمجهود الذي بذلوه بعد ذلك ، حتى نجاحهم في أخذ الشقيق معهم .

وإن علمه عليه السلام بهذه الصعوبة يجعله حريصاً على محاولة جعل الباب مفتوحاً للإخوة ، وذلك بأمر فتيانه أن يجعلوا الثمن الذي دفعه الإخوة

للطعام في رحالهم ، وذلك قد يجعل الإخوة يفهمون أن العزيز ليس لديه الرغبة في بيعهم الطعام مرة ثانية إلا بتحقيق طلبه (١) .

ثم إن هؤلاء الإخوة الأنقياء لم يكونوا يستحلّون حراماً أبداً .

وقد وفق عليه السلام في ذلك كل التوفيق ، فإن هذا الثمن ، الذي وضع في رحال الإخوة ، هو الذي جعل عندهم القدرة لأن يفاتحوا يعقوب مرة ثانية في أمر أخيهم ، بعد تأنيبه العنيف لهم على طلبهم الأول أخذ أخيهم.

وبهذا خرج الإخوة من صمتهم ، وخرج يعقوب عليه السلام من صمته أيضاً .

قال تعالى : ﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي ؟ هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير ، قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل﴾ .

وكي يتضح الدور الإيجابي لوضع الثمن برحال الإخوة في دفع أحداث القصة إلى الأمام ، لنتصور أن هذه العملية لم يقم بها يوسف عليه السلام ، واكتفى بطلبه أن يؤتى بأخ للإخوة من أبيهم إن أرادوا مرة ثانية طعاماً . إن القصة ستتجه وجهة أخرى وستنتهي سريعاً ، ولن يستطيع عليه السلام إعطاء إخوته الدرس النفسي الذي هو أشد وقعاً من العقاب الجسدي الذي لن يكون منه عليه السلام ، فليس ذلك من طبعه .

والذي سيحدث لو أنه عليه السلام لم يضع البضاعة في الرحال ، أن الإخوة سيطلبون من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم ، ويرفض الأب البارّ ذلك الطلب رفضاً عنيفاً ، ولن يستطيع الإخوة بحال أن يفاتحوه في هذا الموضوع مرة ثانية .

وقد يجد هؤلاء الإخوة أو بعضهم بحكم وطأة المجاعة الشديدة أنفسهم

---

١ ـ انظر هنا في ظلال القرآن ١٣/١٣

مضطرين للعودة للعزيز دون أخيهم ، طلباً للطعام من باب المغامرة ، التي يغريهم على القيام بها حسن خلق العزيز .

وهنا سيجد يوسف عليه السلام نفسه مضطراً لأن يكشف لإخوته عن حقيقة نفسه . وبذلك تنتهي القصة سريعاً بعد أن سارت في غير الطريق الآخر الذي سارت فيه فعلا ، والذي أمكن له عليه السلام فيه أن يكيد بعون مولاه لإخوته نفسياً ، ويجازيهم بعض ما قاموا به في حقه من إيذاء جسدي ونفسي .

كما أمكن وقد سارت القصة في طريقها الصحيح الذي قدره يوسف عليه السلام أن يكون عفوه عن إخوته عن قدرة فعلية حقيقية أقر بها كل الإخوة ، ومن هنا كان العفو أحلى وقعاً في نفوس الإخوة وفي نفس كل عالم به .

مظاهر عقاب يوسف النفسي لإخوته :

نود أن نتمثل مظاهر العقاب النفسي الذي طبقه يوسف عليه السلام ، بحق الذين وضعوه في غيابة الجب وسببوا له الكثير من الأزمات النفسية والجسدية .

إنه عليه السلام كان على علم تام بحاجة إخوته إلى الطعام ، كما كان على علم تام بمنزلة شقيقه في نفس يعقوب ، فأعطى الإخوة من الطعام الكمية التي تكفيهم لأجل محدود ، واشترط عليهم إن أرادوا الطعام مرة ثانية أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم .

وإن أول أثر نفسي لهذا الطلب في نفوس الإخوة نلمسه في القول على لسانهم : (سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون) .

إن هناك مجهوداً نفسياً كبيراً ــ كما سبق أن أشرنا ــ سيتجشمه الإخوة حتى يتفوهوا بهذا الطلب ليعقوب .

ونلمس ذلك من جملة «سنراود» التي تدل على ذلك المجهود العظيم فعلا .

وإن ضعف موقفهم نلمسه من قولهم : « وإنا لفاعلون » لأنهم في حاجة إلى الطعام ، فعليهم أن يفاتحوا والدهم في هذه المسألة إن عاجلا أو آجلا .

وليس بخاف أن هذا الطلب أول عقاب نفسي للإخوة ، فإن يعقوب يتعزى بهذا الشقيق عن يوسف الذي يعلم الإخوة يقيناً أنهم هم واضعوه في الجُبّ ، ولولا ذلك لكان مثل هذا الطلب عليهم هينا .

ونلمس ذلك العقاب في طريقة الإخوة في الطلب .

إنهم اقتناعاً ببشاعة الفعل الذي قاموا به تجاه يوسف ، يقدّمون منع الكيل منهم توطئة بين يدي طلبهم إرسال الشقيق معهم .

وليست الصفة التي وجهها يعقوب عليه السلام لهم هينة ، لهذا سكتوا في الحال عن هذا الأمر تماماً .

ولولا أنهم وجدوا بضاعتهم في رحالهم لسكتوا عن هذا الأمر حتى يرغموا بعد وقت ما ، حينما تعض المجاعة آل يعقوب ، على معاودة الطلب.

ولكن الذي عجل بالأمر وجود ثمن البضاعة في رحالهم . وقد أطلق فرح المفاجأة ألسنتهم المعقودة ، ومع ذلك فإن كلامهم الحَذِر ، يدلّ على العذاب النفسي الذي يعانون منه ، فإنهم يجعلون كلا من ثمن البضاعة الذي وجدوه في رحالهم ، والطعام الذي سيحصلون عليه من مصر مستقبلا ، توطئة ، ليس فقط لإرسال الشقيق معهم ، وإنما لحفظهم هذا الشقيق ، ذلك الحفظ الذي كأنهم يتعهدون به،قال تعالى : ﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي ؟ هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير ﴾ .

وحينما يعود هؤلاء من مصر ، بعد الرحلة الثانية دون هذا الشقيق ، نعرف العقاب النفسي الذي حلّ بهؤلاء الإخوة الذين لم يأخذوا هذا الأخ لأنهم جاء على لسانهم قوله تعالى : ﴿وإنا له لحافظون﴾ وقوله: ﴿ونحفظ أخانا﴾ وإنما أخذوه بعد أن آتوا يعقوب موثقاً من الله ليأتنه بهذا الشقيق إلا أن يحاط

بهم ، قال تعالى: ﴿قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل﴾ .

وحينما نعرف أن يعقوب عليه السلام ، البارّ بكلّ أبنائه كان يخشى العين عليهم ، لهذا هو يطلب منهم أن يدخلوا المدينة من أبواب متفرقة وليس من باب واحد ، يعود إليه هؤلاء الأبناء وقد نقص منهم ليس واحداً ولكن اثنان ، نعرف العقاب النفسي الذي كان فيه الإخوة البررة بأبيهم .

وحينما نعرف أن الإخوة باستثناء معاملتهم للشقيقين ، كانوا قمة في الصّلاح والتمسك بأهداب الدين ، نعرف العقاب النفسي الذي نزل بهؤلاء الإخوة حينما جاء على لسان المؤذن مخاطباً القافلة التي فيها الإخوة «﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ .

ويبدو ذلك من الحوار الذي دار ، قال تعالى: ﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم . قالوا تا لله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ، قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ، قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين﴾ .

وإن هؤلاء الإخوة ، انطلاقاً من تمسكهم بحبل الدين المتين ، يعلنون رأيهم في وجوب تطبيق حدّ الشريعة الإبراهيمية على السارق ، إن صح أنه واحد منهم ، وقد كانوا على يقين ، أنهم جميعاً بريئون من تهمة كهذه . وإنهم حينما يجيء على لسانهم ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ فكأنهم يقولون للسائلين : لا داعي لأن تسألونا عن جزاء سارق الصواع ، فمعلوم أنه يسرق لعام واحد ، وليس المهم أن تسألونا عن جزاء السارق ، إنما المهم إثبات وجوده عندنا .

وكان وجود الصواع في رحل أخيهم عقاباً نفسياً شديد الوطأة عليهم ، وكان رد فعل ذلك العقاب النفسي مزيجاً من الغيظ ، من هذا الأخ الذي

وجد الصواع في رحله ، ومن الحقد الدفين عليه وعلى شقيقه ، ومن الافتراء على هذا الشقيق أعني يوسف عليه السلام ، قال تعالى : ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ .

وبمناسبة مجيء هذا القول على ألسنة الإخوة ، نستطيع أن نقول : إن هؤلاء الإخوة لمّا تصفُ أنفسهم لأخيهم يوسف الذي ألقوه في غيابة الجبّ منذ سنوات وسنوات ولم يشعروا بالندم على ما فرط منهم ، ولما تستيقظ ضمائرهم بعد . وبالتالي لم يتورعوا عن اتّهام يوسف بالسّرقة التي لم يكن لها أساس أصلا ، قياساً على ما ثبت لهم من ظاهر سرقة الشقيق .

وربما كان من الأسباب التي جعلت يوسف عليه السلام يعمل على تسريق شقيقه أن يعرف حقيقة شعور الإخوة تجاه هذا الشقيق وتجاهه .

وقد كشف الإخوة بهذا القول عن حقيقة هذا الشعور .

ونعتقد أن شعور الإخوة غير الودي للشقيقين إضافة إلى رغبة يوسف في إبقاء شقيقه هما اللذان جعلاه عليه السلام حازماً كل الحزم ، صارماً كل الصرامة معهم ، رافضاً بشدة طلبهم بعد أن هدأت ثائرتهم وأفاقوا من هول الصدمة الأوّل ، أن يأخذ واحداً منهم بدلا من الشقيق . قال تعالى : ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين ، قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذاً لظالمون﴾

إن نفوس الإخوة حتى هذه اللحظة تجاه الشقيقين ليست صافية ، والقلوب ليست طاهرة نقية ، وكان عليه السلام بإذن من مولاه حريصاً أوّلا على أن تصفو تلك النفوس وتطهر تلك القلوب كي يكشف لهم عن حقيقة نفسه ، وكان بإلهام من مولاه ، على علم تام بأن هذه الغاية التي يصبو إليها ليست بعيدة وأن رجوع الإخوة إليه في رحلة ثالثة ، بقلوب غير هذه القلوب ، ونفوس غير هذه النفوس ، ليس ببعيد لهذا ترك الأمور تجري في مجراها الطبيعي .

وقد ضرب عليه الصلاة والسلام هنا أعلى الأمثلة في رباطة الجأش ،

والحِلم ، وعدم استعجال الأمور ، بل تركها حتى الفرصة المواتية ، كي تعالج علاجاً طبيعياً . وفي الحزم حيث يلزم وبالحزم .

ومن مظاهر عقاب الإخوة النفسي أنهم بمجرد أن أفاقوا من هول الصدمة تمثلوا الموقف بأبعاده المختلفة .

فبعد أن كان لسان حالهم يقول إن الأخ يستحق ما سيحلّ به جزاء عدم أمانته ، إذا بهم يتمثّلون حال يعقوب والدهم وقد بلغه النبأ الخلل ، فيطلبون من العزيز في ذلة وانكسار أن يأخذ واحداً منهم بدلا من الشقيق ، وقد تلقوا من العزيز صفعة عنيفة وعقاباً نفسياً بعيد المدى في الرفض العنيف لطلبهم ، قال تعالى : ﴿ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذاً لظالمون ﴾ .

وإن الإخوة حينما يجيء على لسانهم ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ خطاباً للعزيز ، بينما يقولون : ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ إشارة إلى إنزال العقاب بالسّارق وحده وليس بسواه ، فإنا نستطيع أن نتبين تبكيت يوسف لهؤلاء الإخوة في القول على لسانه : ﴿إنا إذاً لظالمون﴾ وكأنه يقول لهم : لقد تورطتم ، وأنتم الذين تدعون أنكم صالحون متدينون في تناقض عجيب .

حينما كان السؤال عن حد السارق مجرّداً عن معرفة الشخص الذي سيطبق عليه الحكم أعلنتم الحكم في صورة من التعبير واضحة قوية .

وحينما تبين أن ذلك الشخص واحد منكم ، إذا بكم تطلبون مني لإحساني إليكم أن أعفو عن السارق وأعاقب البريء محله ، فهل هذا هو الإحسان أم أنه الظلم عين الظلم باعترافكم أنفسكم !

وقد قضى الإخوة فترة في هذا العقاب النفسي ، حتى تمكن اليأس منهم ، وعرفوا يقيناً أن العزيز لن يطلق سراح أخيهم .

وكان تنحيهم وحيدين إلى زاوية معينة ، متناجين ، مظهراً من مظاهر العقاب النفسي الأليم الذي حل بهم بسبب تحديد الموقف من والدهم نبي الله

يعقوب الذي كان على أمل اللقاء يوماً من الأيام بابنه الحبيب يوسف إذا به لا يعود إليه الابن الحبيب الآخر الذي يتعزى به عن يوسف .

وفجأة يحل بالإخوة عقاب نفسي لم يكن متوقعاً مطلقاً ، يندفع هذه المرة من بينهم كالإعصار المدوي في القول الذي جاء على لسان كبيرهم ، قال تعالى: ﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً ، قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ، ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون﴾ .

وإن هذا العقاب النفسي لذو جوانب . فهو من ناحية يبين الموثق الذي أخذه منهم أبوهم بشأن الشقيق ، وهم يعرفون أنه إنما أخذ منهم ذلك لحبه لهذا الشقيق وتعزّيه به عن يوسف.فإذا كان عند الإخوة تمثل لجوانب هذه المسألة غير كامل ، فإن كلام هذا الأخ الكبير مكمل لكل نقص ، وفي ذلك إيلام للإخوة أيما إيلام .

وإذا كانت العلاقة بين أخذ الموثق منهم ووضعهم ليوسف في غيابة الجب غير واضحة ، فإن في كلام هذا الأخ توضيحاً أيما توضيح .

بل إنه باعتباره الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يؤنّب الإخوة وأن يلومهم وهم الذين اقترحوا قتل يوسف أو طرحه أرضاً . بينما اقترح هو لإنقاذه جعله في غيابة الجبّ ، لذلك كان قادراً على حصر التفريط في يوسف عليهم وإخراج نفسه من بينهم ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ .

وإذا كان قرار هذا الأخ البقاء في مصر عقاباً نفسياً للإخوة في حدّ ذاته ، إذ يعتبر انشقاقاً عليهم ، وتعميقاً فعلياً بعيد المدى للخلاف المبدئي الذي تمثل في كون هذا الأخ يقترح طرح يوسف في غيابة الجب ، خلافاً لبقية الإخوة ، فإن ذلك يعني أيضاً أنهم هم الذين سيواجهون يعقوب

مباشرة بهذا النبأ الجلل ، خلافاً للعادة التي جرت بأن يقوم هذا الأخ الأكبر بدور الناطق بلسان هؤلاء الإخوة .

فقد استنتجنا قبل من كلام هذا الأخ الأكبر أنه كان على علم بدقائق الأمور التي يليق علمها بمن كان قائماً بشؤون الآخرين .

ومعنى هذا أن الإخوة سيقومون للمرة الأولى بتجربة لم يسبق لهم القيام بمثلها ، وذلك في حد ذاته درس قاس لهم وعقاب بعيد المدى ، فليس مواجهة والدهم بهذا النبأ الجلل مما ترتاح النفوس له بحال . على الرغم من أنهم لا دخل لهم فيما حدث للشقيق .

وإذا كان انشقاق الأخ الأكبر على إخوته وما قاله لهم يعتبر عقاباً نفسياً ذا صور مختلفة لهؤلاء الإخوة ، فإن كل ذلك صورة للعقاب النفسي الذي حل بالأخ الأكبر نفسه أوّلا .

وليس بخاف أن السبب في كل ذلك استرقاق العزيز للشقيق .

وإن بقاء الأخ الأكبر في مصر ليس عقاباً جسدياً لهذا الأخ بقدر ما هو عقاب نفسي له . فإن عليه أن يعمل ويكدح في مصر في سبيل لقمة العيش ، تماماً كما يفعل حيث يعقوب وآله .

ولكنه وهو الرجل القمة في رهافة الإحساس ، والذي قرر البقاء في مصر لعدم قدرته على مواجهة أبيه بذلك النبأ الجلل الذي سبق أن تلقاه يعقوب عن يوسف ، يجب أن يكون عائشاً بروحه وأفكاره ومشاعره مع والده نبي الله يعقوب .

والذي يجعل عقابه النفسي مرّاً جهله التام بما جرى لوالده حينما تلقى النبأ الفاجع بعدم عودة ابنيه .

ومعنى هذا أن الأخ الأكبر يشعر في أعماقه بأن عدم عودته مع إخوته يسوء يعقوب من ناحية ، ولا يغيّر من جوهر قضية الشقيق ، ووقع النبأ السيء في نفس يعقوب من ناحية أخرى .

وكان هذا الأخ يجهل ما يجري لإخوته وآل يعقوب بسبب ما سيحدث ليعقوب . كما أنه لا يدري هل سيقدر له أن يلتقي مرة أخرى بأبيه وإخوته وآل يعقوب ، أم أن ذلك لن يقدر له .

وباختصار فإن أحسن ما يمكن لهذا الأخ أن يتخيله عن يعقوب لن يقل سوءًا عن الحال التي كان فيها يعقوب عليه السلام بالفعل .

ونستطيع أن نفهم أن المدة ذات الطول النسبي التي قضاها الأخ الأكبر في مصر قد مرت في بطء قاتل(١) .

فإذا تحولنا إلى الإخوة الذين سيقابلون أباهم ، فإن هناك أكثر من عقاب نفسي سيحلّ بهم .

إنهم في حاجة لاستجماع كل شجاعتهم كي يخبروا أباهم بما حل بالشقيق . وهم يتلقون من يعقوب الجواب الذي قد لا يستحقّون هذه المرة ، ولكنه باعتباره الجواب الذي سبق أن تلقوه منه حينما زعموا أن الذئب قد أكل يوسف ، فمعنى أن هذا القول: ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾ يحرّك غيظهم الشديد على يوسف ، السبب الأول في كل ما حدث .

وإن هذا الغيظ ليبلغ أشده حينما يتردد على لسان يعقوب بقصد منه وبدون قصد هذا القول: ﴿ يا أسفي على يوسف ﴾ فيتبلور في هذا القول على لسانهم ﴿ تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ﴾ وبقدر ما هو تعبير عن الغيظ من أخيهم يوسف . بقدر ما هو تعبير عن تألمهم من وضع يعقوب المتردّي وصحته المتدهورة .

ولا يمكن بحال أن ننسى أن ليوسف عليه السلام قصداً نبيلا وغاية حسنة ، بوضع إخوته في هذا الموقف من والدهم .

وذلك يتضح من تحول الإخوة سريعاً إلى صفاء نفس ، وطهر أفئدة ، وتوبة نصوح صامتة ، وندم على ما فَرَطَ منهم بحق والدهم نبي الله يعقوب .

---

١ ـ الاخوة وهم جماعة عانوا من طولها وبطئها عناءً شديدا .

بالتفريق بينه وبين ابنه الحبيب يوسف ، وإحساس تامّ بجريمة إساءتهم لأسرة آل يعقوب التي اضطرب نظمها ، ونقصت حبة عقدها ، ونية صادقة في رأب الصدع ، وإعادة لمّ الشمل ، لو أن ذلك بالإمكان .

إنا لنفهم كل ذلك وكثيراً سواه من سكوت الإخوة التام وعدم إجابتهم أباهم البتة حينما خاطبهم بقوله كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

إن يعقوب عليه السلام يطلب من الإخوة أن يذهبوا ويتصيدوا كل خبر طيب سارّ عن يوسف بالذات وشقيقه كذلك .

ولا يملك الإخوة إلا أن يجيبوا الطلب ، ويضربوا في الأرض الطويلة العريضة تحسساً من يوسف وأخيه .

وإن ذلك ليعتبر خير دليل على التّحوّل إلى الحسن . الذي طرأ على شخصيات الإخوة وعودتهم إلى الجادّة التي أراد لهم يوسف بتصرفاته معهم ، أن يعودوا إليها .

وبذلك انضم الإخوة بهذا التحول إلى أخيهم الكبير الذي بقي في مصر بعد انشقاقه عليهم لأنه انفرد بسبقهم إلى هذا التحول .

وما دام : الإخوة عادوا إلى أرومة آل يعقوب الطيبة الطاهرة فالتحموا بها وذابوا فيها مرة ثانية ، فمعنى هذا أن يوسف عليه السلام الذي كان يصدر في تصرفاته عن مصلحة جماعية وليس عن رغبة شخصية ، سيكشف لهم عن حقيقة نفسه وهو ما تمّ فعلا .

ونستطيع أن نقول : إن الوصول إلى هذه النهاية السعيدة إنما تم ، لحسن تحريك يوسف عليه السلام للأحداث ، وحسن تلقي يعقوب عليه السلام لها ، وقد تم كل ذلك بإذن الله تعالى وإرادته .

يوسف عزيز مصر · يكشف في الرحلة الثالثة لاخوته عن حقيقة نفسه :

قال تعالى : ﴿فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضرُّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين ، قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ، قالوا أئنك لأنت يوسف ؟ قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ، قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ، قال لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين﴾.

سبق أن درسنا الآية الأولى في هذا المشهد(١) ووعدنا بدراسة شخصيات إخوة يوسف في بقية هذا المشهد بالذّات إلى جانب شخصية يوسف ، وذلك بسبب التلاحم بين ما قاله يوسف والإخوة(٢) .

قبل الانتقال إلى جواب يوسف ، في هيئة السؤال التقريري المفاجيء للإخوة ، الدّال على طيب نفس يوسف ، وطهر قلبه ، وصفاء روحه ، ونقاء معدنه ، ولطف تعبيره ، نتلو هذه الآية التي يشير الله تعالى فيها إلى إيحائه ليوسف الغلام آنذاك ، بأنه سينبيء هؤلاء الإخوة بأمرهم هذا ، قال تعالى : ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ .

لقد تحقق وعده تعالى ليوسف ، وها هو ذا يقوم الآن بتذكير الإخوة بأمرهم .

ولكن في أي الطرق يقوم يوسف بتذكير إخوته بفعلهم ؟

وبعبارة أخرى : ماذا ينتظر من الكريم ، نبي الله يوسف ، أن يقول لإخوته؟

في أي صورة من صور التعبير سيقوم هذا الإنسان النبيل بتنبيه إخوته إلى الجريمة ، في عرفنا ، التي ارتكبوها بحقّه ؟

---

١ ـ أثناء دراستنا لشخصيات الاخوة تحت القسم بعنوان «اخوة يوسف في مصر للمرة الثالثة» .

٢ ـ ص ٣١٨ من هذا البحث .

إنهم النهاية في الضعف ، وهو النهاية في القوة ، فما هو فاعل بهم ؟

وهل نسى الإخوة ما قاموا به تجاه يوسف ؟

كيف ينسون وهم إنما خرجوا من بلادهم آخر مرة للتحسس من يوسف وأخيه ؟ .

وهل أدركوا الجرم الذي ارتكبوه بحقه أم أنهم لم يدركوه ؟

كانوا مدركيه تمام الإدراك ، ولكنهم كانوا حريصين على إبقائه طيّ الكتمان .

وما الفائدة في اعتقادهم ، من إزاحة الغطاء عن هذا السر ؟

لا فائدة على الإطلاق .

فلنتأمل في هدوء لطف تعبير يوسف في مخاطبته لإخوته ، وطريقته اللينة في التنبيه ، الملطفة من السقوط المفاجيء للمعرفة بأن الذي أمامهم يوسف .

لقد كان الإخوة متلهفين لجواب العزيز على طلبهم المتعلق بالطعام ، وقد جاء في الآية (قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضرُّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين » .

كان اهتمامهم محصوراً في الطعام ، ويتوقعون أن يكون جواب العزيز المتعلق بالطعام ، بالإيجاب ، وإذا بهم يفاجأون بحرف الاستفهام هل ، يأتي بعد ذلك في صيغة الماضي، الفعل لطيف الوقع من جملة « علمتم » .

إن الإخوة وقد طال عليهم الوقت الذي استغرقه قول العزيز : « هل علمتم » وتبين أن الاستفهام لا يوحي أنه مرتبط بالطعام الذي جاءوا من أجله للحاجة إليه ، وبدا أنه بعد أن كان المنتظر أن يقوم العزيز بدور المجيب عن الطلب وإذا بطريقته في التعبير توحي بأنهم هم الذي عليهم أن يجيبوا كأني بهم يتساءلون : ماذا علمنا ؟

وهل السؤال لنا أم لسوانا ؟

إننا مجموعة وقد استعمل العزيز ضمير جماعة المخاطبين ، هل علمتم ؟

ونحن الذين ابتدأنا بالطلب ، وكلنا يقظة واهتمام لجوابه على طلبنا نحن .

ولم يعوّدنا العزيز ، القمة في الأدب أن نخاطبه فيوجه الحديث إلى سوانا ، لا . . ليس هذا من خلقه .

إذن يجب أن نكون نحن المقصودين باستفهامه : هل علمتم . ولكن علمنا ماذا ؟

ويأتي مباشرة قول العزيز : « ما فعلتم » .

ما هذا ؟ إن جماعة المخاطبين يستعمله العزيز مرة ثانية .

إذن قطعاً نحن المرادون .

ولكن ، ما الذي فعلنا ونحن متمسكون بأهداب الدين الحنيف ؟

ولا نذكر أننا فعلنا سوءاً منذ سنوات وسنوات . خاصة وأننا كلنا ثقة في الله تعالى أن نكون قد عدنا صالحين بعد توبتنا النصوح على ما فرّطنا في حق أخينا يوسف ، وهذا سر بيننا وبين بارئنا .

أتكون هناك سرقة من نوع آخر ستعلق بنا جميعاً بعد أن ثبت ظاهرها من قبل في حق الشقيق واسترقّ بسببها ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله (١) .

وفجأة يرن في أسماعهم ، من الشخص الذي أمامهم صراحة ، الاسم الذي لا يمكن أن يتفوه به إلا صاحبه « يوسف » (هل علمتم ما فعلتم بيوسف) .

ولماذا لا يمكن أن يتفوه بهذا الاسم صراحة إلا صاحبه ؟

ومن أين يعرف العزيز أن هناك أخاً لهم اسمه يوسف ؟

أمن الأخ الأكبر الذي كان أكثرهم زهداً عن مجرد تذكر الجريمة التي ارتكبوها بحق يوسف ؟

---

١ ـ يمكن ان يكون القول بلسان عصرهم «يا اسفى علينا وعلى حالنا » .

أمن الشقيق الذي ثبتت عليه السرقة واسترق بسببها (١) ؟ لا هذا ولا ذاك .

إذن لا يمكن بحال من الأحوال أن يتفوه بهذا الاسم ، في هذه الصراحة والوضوح ، إلا يوسف .

وإن لسان حال الإخوة يقول : ليس هناك مخلوق يعرف تماماً ما فعلنا بيوسف من غير أنفسنا سواه .

وإن استفهامه ، وطريقة الاستفهام نفسها ، يوحيان بالمعرفة التامّة بما فعلنا .

لقد آن الأوان ، بإذن منه تعالى ، أن يكشف لهم يوسف عن حقيقة نفسه ، ويعرّفهم ، في ألطف عبارة بذاته ، ويتدرج بهم في التذكير بما فعلوا به كيلا يكون وقع المفاجأة عليهم مزعجاً !

وبطبيعة الحال ، كان الإخوة على علم تام بكلّ ما فعلوا بيوسف .

بل كان هذا التذكير اللطيف من يوسف مصدر تعجب منهم ، إذ ليس هناك مناسبة بين هذا التعبير الهيّن الليّن وبين الجريمة التي ارتكبوها بحقه .

ما أنبل هذا الأخ ! ألا يقول الآن : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ؟

وإن واو العطف تفيد مطلق الجمع ، أليس كذلك ؟ بلى .

ولكنه يأتي بعد الواو التي هذه صفتها بأخيه مباشرة ، فما معنى هذا ؟

معنى هذا أن أخانا النبيل يوسف ، ذا الخلق العظيم ، يهوّن من جريمتنا في حقه .

فهو من ناحية يصف هذه الجريمة بالفعل ، ومن ناحية ثانية هو يساوي بين فعلنا مع شقيقه وفعلنا معه .

ألم يقل : ما فعلتم بيوسف وأخيه ؟ إن عطف الأخ هنا ، الذي لا يمكن

---

١ ـ على أساس أن عنده معلومات من نوع ما بسبب معاصرته لما جرى لآل يعقوب .

أن يوصف فعلنا السيء معه بأنه جريمة ، على لفظ « يوسف » في القول «بيوسف وأخيه » يظهر عملنا مع يوسف ، الذي يعتبر جريمة حقاً ، مساوياً لعملنا مع أخيه .

ولا يمكن بحال أن يكون يوسف يريد أن يساوي فعلنا بأخيه بفعلنا معه لا ، لا يمكن أن يكون هذا هو المراد .

ألا يبدو عليه التأثر التام لاضطراره لذكر ما لا بد منه ؟

ألا يبدو في تعبيره اللطف البعيد المدى والرقة والتسامح .

ألا نتبين التوافق الإلهامي في الترتيب بين ما قاله والدنا ﴿ فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ ، وقول يوسف الآن : ﴿ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴾ .

إن أبانا قدّم يوسف في الذكر لحبّه له .

وإن يوسف بهذا العطف بالواو يريد أن يلطف من فعلنا به بمساواته بفعلنا بأخيه وليس العكس .

والدليل على صحة ما نقول هذه الجزئية التي ختم بها تذكيره اللطيف : ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ .

ما أنبل هذا الأخ القادر على البطش بنا جميعاً في حسن التعليل !

إنه يصفنا بأننا كنا وقت إلقائه في الجب طائشين . لم يكتمل لنا رشدنا بعد ، مع أننا جميعاً ، وبدون استثناء (١) ، أكبر منه سناً .

إننا لو طلب منا تبرير لجريمتنا بحقه لم يجرؤ واحد منا على مجرد التفكير في وصف نفسه بهذه الصفة البسيطة الهينة .

ولكن النبيل هذه صفته دائماً .

ثم إن هذا القول منه: ﴿إذ أنتم جاهلون﴾ يشتم منه أن صفة الجهل بمعنى الطيش ، كانت عرضاً علق بنا ، ما لبث أن فارقنا ، ولكن بعد فوات الأوان .

---

١ ـ اعنى الذين وضعوه فى غيابة الجب .

حتى العذر نفسه ، لا يبخل علينا هذا الأخ الكريم الخلق ، بتلقيننا إياه وإظهاره في أحسن مظهر .

لقد ثبت للإخوة أن الذي أمامهم أخوهم يوسف ، ولم تكن أنفسهم مهيأة لتلقي هذه المفاجأة بالذات ، وهنا يدخلون همزة الاستفهام على جملة تعتبر قمة في التوكيد « قالوا أئنك لأنت يوسف » .

إن الاستفهام قد جاء لطرد ما سقط على أنفسهم من غرابة المفاجأة ، والجملة التي أتت بعدها تعكس يقين الإخوة المطلق في أن الذي يخاطبهم أخوهم يوسف وليس سواه .

وأصل الجملة « إنك يوسف » ولا يخفى أن « إنّ » تفيد التوكيد ولكن الجملة تضمنت الضمير المنفصل « أنت » الذي يفيد التوكيد .

لا ، ليس ذلك فحسب ، بل إن لام التوكيد نفسها دخلت على الضمير المنفصل الذي تلك صفته .

فليس القصد من الاستفهام التثبت من أن الذي أمامهم يوسف بقدر ما هو بقصد التعبير عن غرابة المفاجأة غير المتوقعة على الإطلاق .

وهنا يأتي جواب يوسف في هذه الصورة ﴿قال أنا يوسف وهذا أخي﴾ .

وإنا لنتساءل ، لماذا أضاف يوسف على جوابه قوله : ﴿وهذا أخي﴾ ولم يسأل الإخوة إلا عنه ؟

وكي نجيب على ذلك فإن علينا أن نتأمل قول يوسف السابق : ﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه﴾ إن الاستفهام التقريري عن يوسف وأخيه وليس عن يوسف فقط .

وقد فوجيء الإخوة تماماً بقول العزيز هذا ، فهنا إشارة دقيقة كاشفة لما حرصوا على إبقائه سرًّا .

هنا ذكر صريح ليوسف وعودة الضمير من « أخيه » إليه .

فالمفاجأة أتت من الذكر الصريح ليوسف ومن الربط الدقيق بالضمير بين هذا الأخ ويوسف .

وكأني بالإخوة يقولون : إن العزيز لا يجهل أن لنا أخاً من أبينا . أليس هو الذي اشترط مجيئه كي يكيل لنا ثم ثبت ظاهر تهمة السرقة عليه فاسترقّ .

ولكن الغريب علينا حقاً ما توحي به عبارة العزيز هذه من أن هذا الأخ من أبينا هو شقيق يوسف .

ألم يقل : « وأخيه » ؟ تماماً كما قال والدنا من قبل : « وأخيه » وهو يعني به شقيق يوسف .

وإن في أنفس الإخوة علامات استفهام كثيرة بناءً على ذلك .

هل أخفى يوسف عن شقيقه حقيقة نفسه أم أعلمه بها ؟

ومتى كان ذلك إن صح أن أعلمه فعلا ؟ .

وسواء أعلمه أم لم يعلمه فأين هو الآن ؟

ولو صح أنه لم يعلم فهل سيكون علمه بحقيقة العزيز مفاجئاً له كما فاجأنا نحن ؟

وما سيكون موقفه حينما يتبين أنه سرق أخاه ؟ أم أنه لم يسرق ؟

ولكن لِمَ لمْ يرفض التّهمة التي وجهت إليه علناً وعلى رؤوس الأشهاد ؟

أم أن ما حدث له كان بعد اتفاق بينه وبين يوسف وقد عرّفه الأخير بنفسه ؟

لقد وجدنا في المرة الأولى بضاعتنا في رحالنا ، ويجب أن يكون لها واضع . فهل معنى هذا أن للصواع واضعاً ، قياساً على ذلك ؟

وهل مصدر الفعلين واحد ؟ أم أن الأمر بعكس ذلك وأن أخانا سرق

بالفعل . لا . إن الشقيق كما أوحى بذلك والدنا ، لا يمكن أن يسرق ، ويشهد بذلك خلقه القويم .

علامات استفهام كثيرة كانت تدور بِخَلَدِ هؤلاء الإخوة ، وقد قطع عليهم التمادي فيها جواب يوسف المتضمن قوله : « وهذا أخي » .

لقد كان يوسف وأخوه شريكين في ظلم الإخوة لهما ، والآن هما شريكان فيما أنعم الله تعالى به عليهما .

حقاً كان نصيب يوسف في الشركتين هو الأكبر ، والثواب على قدر الابتلاء ﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

وهكذا يتضح أن انتقال يوسف عليه السلام إلى الحديث عن أخيه ، تمشياً مع تنبيهه اللطيف حينماقال: ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴾ فيه راحة لهؤلاء الإخوة الذين أدركوا خطأهم الفادح تجاه يوسف وأخيه .

وهي راحة لا يمكن أن تكون بسيطة بحال ، لأن اسم الإشارة « هذا » من قول يوسف: « أنا يوسف وهذا أخي » دليل على أن أخا يوسف قريب منهم القرب كله ، فيحدث لهم حينما يلتفتون مع إشارة يوسف صوب أخيه ، هدوء نفسي ذو بال ، ينسجم مع الهدوء النفسي الذي أحدثه لهم تنبيه يوسف اللطيف لما فعلوا وكشفه التدريجي عن حقيقة نفسه .

والحقيقة أن ما وصل إليه يوسف ، وقد نال أخاه شيء منه ، كان تفضلا من الله تعالى عليهما .

وتأمل الجزئية التالية التي جرت على لسانه عليه السلام ﴿ قد منّ الله علينا ﴾ والتي تتمشى مع قوله تعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى ﴾ .

فقد أثاب تعالى كلا من يوسف وأخيه في الدنيا على إحسانهما ، ولكنه عليه السلام يتأدب في التعبير ، فيشير إلى أن ما أنعم الله به عليهما ما هو إلا منة امتن بها عليهما .

ويأتي بعد ذلك مباشرة قوله : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

إن يوسف نبي الله ، يشير مؤكداً ، إلى أن الله تعالى لا يضيع العمل الحسن لأي عامل يتقي الله تعالى باجتناب ما نهى عنه وفعل ما أمر به ويصبر صبراً جميلا ويحتسب .

وليس شرطاً أن يكون الجزاء في الدنيا ، فقد لا يكون فيها ولكنه يجب أن يكون في الآخرة . وقد يكون في الدنيا والآخرة معاً . وكل ذلك بمنّ الله وفضله .

وواضح التلاحم بين هاتين الجزئيتين ﴿ قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ ، فمع أن الثانية تشير إلى التقوى والصبر ، وقد ضرب عليه السلام ذلك المثل الأعلى ، وكذلك أخوه ، ومع أنها تؤكد اطمئنان يوسف إلى أن الله لا يضيع عمل عامل ، وأنه تعالى سيجازيه ، إلا أنه ليس هناك تعيين لوقت الجزاء .

وقد جازى الله تعالى يوسف في الدنيا ، ويطمع في جزائه الأَوْفَى في الآخرة .

فالجزئية الأولى « قد منَّ الله علينا » ليست سوى شكر لله تعالى على جزائه الحسن في الدنيا .

والجزئية التي تليها ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ ليست سوى تعبير عن اطمئنانه عليه السلام ، إلى أن الله تعالى الكريم المتعال سيجازيه في الآخرة على ما أعانه عليه في الدنيا من تقوى وصبر ، وطمعه في أن يمنّ الله عليه في الآخرة ، بأن يتغمده برحمته هو وكل محسن ، تماماً كما من عليه في الدنيا وتغمده برحمته .

وحتى هذه اللحظة لم نتكلم عما فهمه الإخوة من قول يوسف: ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ كي يكون جوابهم كما جاء

في الآية ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين﴾ .

إن يوسف النبيل يأتي بهذه الجزئية العامّة التي يدخل فيها هو وأخوه ضمناً ، وإن كان حظه كبيراً فهو الذي صبر على فعل إخوته واحتسب ، ولكل ما جرى له مع النسوة وفي السجن وهكذا . وهو الذي اتّقى الله في كل مناسبة .

وبما أن آخر عهد لهم بيوسف هو وقت إلقائه في الجب ، ولا يعرفون شيئاً مما صادف ، فإنهم يفهمون التقوى بمعناها العام العادي ، ويفهمون الصبر ، صبر يوسف بالذات بأنه الامتثال التام منه لأمر الله تعالى وقضائه عليه بأن يفعلوا به ما فعلوا ، وكان ذلك ملازماً له هو والتقوى حتى تم التعرف عليه.ولا يخفى أن لأخيه حظاً من كل ذلك .

وهنا نتساءل : ما نصيب الإخوة من التقوى والصبر ؟

هل اتقوا الله في يوسف وأخيه ؟

لا .

هل صبروا وعلموا أن الله تعالى هو الذي وضع في قلب يعقوب المحبة الفائقة ليوسف وأخيه ؟

لم يصبروا ولم يحاولوا أن يعلموا ، وقد استزلهم الشيطان فزين لهم الكيد ليوسف أول الأمر ، وإساءة المعاملة لشقيقه بعد ذلك . وذنبهما أن يعقوب يحبهما رغماً عنه أكثر من حبه لهم .

وهكذا يتضح أن هذه العبارة العامة من يوسف ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ يفهمها الإخوة بالضرورة على أنها تنبيه لطيف من يوسف لهم بأنهم أثناء فعلهم به وبأخيه ما فعلوا ، لم يكن لهم نصيب من التقوى والصبر فجازاهم الله على صنيعهم ، لأنهم لم يكونوا وقتها من المحسنين .

وهنا يأتي جواب الإخوة في صورة قوية جداً من التعبير ، المصور

لوضع يوسف أخيراً وقد منّ الله عليه ، المتضمن اعترافهم الصريح بخطئهم المحض المتعمّد ، بحقّ يوسف على وجه الخصوص ، قال تعالى : ﴿ قالوا تا لله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ .

وتأمل تاء القسم ، ولفظ الجلالة المقسم به ، واللام التي تفيد التوكيد ، الداخلة على « قد » التي تفيد التحقيق .

كل ذلك بقصد التعبير عن ثقة هؤلاء المطلقة في أن الله تعالى قد فضله عليهم ، وكان الأحرى بهم أول الأمر أن يفهموا ذلك ويمتثلوا لإرادة الله ، ولكنهم لم يفهموا ولم يمتثلوا ، وأرادوا الشر بيوسف ، وأراد الله تعالى الخير له .

ولا يخفى أن الإخوة يريدون بالإيثار أيضاً ، إيثار الله تعالى له ، بما أنعم به عليه في الدنيا ، بينما هم ، بسبب ظلمهم لأنفسهم ، في ذلك الوضع المؤلم والحالة التي يرثى لها .

لقد أثاب الله تعالى يوسف على صبره وتقواه وجازاهم على أفعالهم .

وهنا يأتي على لسانهم هذه الجزئية التي تتعلق بذات أنفسهم ﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ .

فهنا إقرار في صورة قوية من التعبير بأنهم كانوا الخاطئين .

ويلاحظ أن جملة « كنا » في صيغة الماضي تفهم أن الإخوة ، بعد فوات الأوان ، أدركوا خطأهم ، وندموا حيث لا ينفع الندم . ولو أرادوا تصحيحه لما استطاعوا .

لذا يكتفون أمام يوسف الآن بالاعتراف الصريح بالخطأ الذي ارتكبوه ، ولعلهم تمثلوا شيئاً من الصعاب التي يجب أن يكون قد صادفها عليه السلام بسبب إلقائه في الجب وإقصائه عن والده وأهله ، وكأن لسان حالهم يقول : إن سوء حالنا الآن يغني عن ذل سؤالنا لصفحك وعفوك .

يوسف يعفو عن إخوته :

النبيل يوسف عليه السلام ، لا يحوج إخوته للخوض في المسألة التي لا تخص سواه بأكثر من الاعتراف الذي أدلوا به بمحض إرادتهم .

قال تعالى على لسانه : ﴿قال لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ .

إنه عليه السلام يتنازل عن كل حق له ، ويأبى خلقه الكريم ، في ذلك اليوم الذي قدر فيه فعفا ، حتى عن مجرد توجيه اللوم إلى الذين أَلْقَوْهُ في غيابة الجب .

إن ذلك اليوم ، في نظره عليه السلام ، أولى أن تبدأ به صفحة جديدة من الصفاء والمودة ، وفي مجرد توجيه اللوم ، عودة إلى الماضي البغيض وإحياء له ، وهذا يتعارض مع الصفحة البيضاء النقية التي يريد أن يبدأ بها ذلك اليوم .

ولكن يوسف عليه السلام البر الرحيم ، يتنازل عن حقه فقط ، ويبقى حق الله ، ومع ذلك فهو على ثقة ، كما كان والده على ثقة ، من أن الله تعالى أرحم بالمخلوق من أخيه وأبيه وكل محبّ .

فإذا كان العبد يوسف ، قد رحم إخوته فتجاوز حتى عن مجرد اللوم ، فكيف بأرحم الراحمين ؟

لذا جاء على لسانه ، داعياً أرحم الراحمين أن يتغمدهم برحمته ، قوله تعالى : ﴿يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ .

وإن هذه المعاملة منه عليه السلام لإخوته دليل على أن ما قاموا به تجاهه كان نزوة طارئة بإغراء من الشيطان الرجيم ، وإن معدن هؤلاء النقيّ ؛ هو الذي جعلهم يعودون إلى الخط الذي يسير فيه آل يعقوب .

وقد كان العقاب النفسي الذي اختاره يوسف لهم وأوقعه عليهم مكتفياً به مع إكرامه لهم في كل مرة يأتون إليه ، خير دليل على أننا إزاء نوع

متميّز من عباد الله الصالحين الذين خدعهم الشيطان الرجيم ، وسوّل لهم طرح أخيهم في غيابة الجب .

ولا نستطيع أن ننتقل من جو الصفح والرحمة قبل أن نتمثل موقف محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، من قريش بعد أن فتح مكة ، ونزل بها ، واطمأن الناس .

فقد خرج عليه الصلاة والسلام حتى جاء البيت ، فطاف به سبعاً على راحلته ويستلم الركن بمحجن(١) في يده ، فلما قضى طوافه دعا عثمان ابن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له ، فدخلها وصلى فيها ثم خرج (٢) .

و « أخذ بِعِضادتي باب الكعبة . . فقال لقريش (فيما قال) ما ترونني فاعلا بكم ؟ قالوا نظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت فقال : أقول ما قال أخي يوسف : لا تثريب عليكم اليوم » (٣) .

وفي سبيل تبيين المعنى المراد من « اليوم » في قوله تعالى : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ وقد تلاه عليه الصلاة والسلام في هذه المناسبة ، نود أن نتبين معنى اللفظة نفسها وقد جاءت في غير الآية على لسانه صلى الله عليه وسلم في المناسبة نفسها .

فبعد انتهائه عليه السلام من حديثه لقريش جلس في المسجد « فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السِّقاية صلى الله عليك ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعي له فقال : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم برٍّ ووفاء » (٤) .

---

١ ـ المحجن : عود معوجّ الطرف ، يمسكه الراكب للبعير في يده .

٢ ـ انظر مثلا السيرة ٢/٤١١ـ٤١٣

٣ ـ الكشاف في تفسير قوله تعالى «يغفر الله لكم» . وعضادتا الباب : خشبتان منصوبتان مثبتتان في الحائط على جانبيه.

٤ ـ السيرة ٢/٤١٢ والحجابة : سدانة الكعبة ، والسّقاية : سقاية الحجيج من ماء زمزم .

لقد جاءت لفظة اليوم في كلامه صلى الله عليه وسلم وفي القرآن على لسان يوسف ، والمعنى والله أعلم ، اليوم يوم بر ولم شمل ورأب صدع وابتداء صفحة جديدة بيضاء نقيّة .

وإن اللوم مجرداً يفسد ذلك كله فلا داعي له أصلا فضلا عمّا سواه ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ (١) .

على أنه ينبغي أن نعرف أن العفو مقصور على الذين يستحقّونه ، فإنه بالنسبة لهم أبلغ وأنفع من أي وسيلة أخرى ، وقد قال الشاعر (٢) :

• ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا •

وإن هناك نفوساً أخرى لا يجدي معها إلا استئصال الشَّأْفَة(٣) . ونكتفي في هذه المناسبة بحادثة واحدة في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

فبعد ما جرى للمسلمين في أُحُد ما جرى وبلغه عليه السلام أن أبا سفيان يريد أن يكرّ على المدينة المنورة مرة أخرى لاستئصال البقية الباقية من المسلمين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القوم ، حتى انتهى إلى حمراء الأسد ، وهي من المدينة على ثمانية أميال (٤) .

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في جهة ذلك . . . . أبا عَزَّةَ الجُمَحِيّ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسره ببدر ، ثم منّ عليه فقال : يا رسول الله ، أَقِلْنِي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :والله لا تمسح عارضيك(٥) بمكة بعدها وتقول : خدعتُ محمداً مرتين ، اضرب عنقه يا زبير ، فضرب عنقه .

---

١ ـ الأحزاب : ٢١
٢ ـ المتنبي ، ديوانه ١ ، ٢٩٢
٣ ـ الأصل .
٤ ـ السيرة ٢/١٠٢
٥ ـ العارض : صفحة الخد

قال ابن هشام : وبلغني عن سعيد بن المسيب أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن لا يلدغُ من جُحر مرتين ، اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت ، فضرب عنقه » (١) .

يوسف عليه السلام ، البارّ بأبويه وأهله ، الشكور لمولاه :

وإذا كان يوسف عليه السلام بارًّا بإخوته في هذه الصورة ، فكيف به مع أبيه الحبيب الذي عاد أعمى بكاءً عليه ؟

فبعد أن انتهى عليه السلام من الحديث اللازم في أوجز عبارة وأبلغها عن نفسه وإخوته ، انتقل سريعاً للحديث عن والده كما جاء في الآية التالية: ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ .

وقبل أي شيء نتساءل : كيف عرف يوسف بأن أباه ابيضت عيناه وعاد أعمى بينما كان حديث عهدٍ بعمى ، ولم يعلم بذلك شقيق يوسف والأخ الأكبر بتاتاً ، ولم يُشر الإخوة بحرفٍ واحدٍ إلى هذه الحقيقة ؟

والجواب على ذلك إنها النُبُوّة وإنه العلم اللدني الذي وهبه الله تعالى إياه . والآن إلى تأمل جملة فعل الأمر « اذهبوا » .

---

١ ـ السيرة ٢/١٠٤ وإن واجبنا نحن المسلمين أن نستفيد من كل هذه الدروس ، وأن نعرف يقينا ، أن الضر الذى يحل بالمسلمين في اكثر من مكان ، لا يرفعه الا العودة الى التمسك بحبل الدين المتين وتطبيق تعاليمه بدقة والانتفاع من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم . ولا يليق بالمسلمين أن يقال عنهم : قد خدعناهم مرة ومرة ومرة ، فقد قال المصطفى «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» . قال تعالى : ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ (الممتحنة ٨ ، ٩) . وينبغى أن يعلم انه مادام ان هناك قرآنا كريما وسنة مطهرة وتاريخا مجيدا فهناك مسلمون ، ومادام ان هناك مسلمين فهناك جهاد فى سبيل الله ، ومادام أن هناك جهادا فى سبيل الله فهناك راية لا اله الا الله محمد رسول الله عالية خفاقة . ﴿ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز﴾ (الحج ، ٤٠) .

ألا تذكرنا بعبارة يعقوب اللطيفة التي فيها الجملة نفسها في قوله تعالى: ﴿ يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ ؟

ألم نتبين من قبل الفرق بين عاطفة الأب وهو يستعمل هذه الجملة « اذهبوا » وعاطفة الأخ الأكبر وهو يستعمل الجملة « ارجعوا » ؟

ألا نتبين في هذه الجملة التي استعملها يوسف « اذهبوا » مسحة من البرّ والحنان اللذين لمسناهما في قول يعقوب الذي استعمل فيه الجملة نفسها ؟

ألم نشمّ منها على لسان يعقوب رائحة التفاؤل بأن يعود الإخوة ومعهم الأخبار الطيبة عن يوسف وأخيه ؟

وبناءً على ذلك ، أليس في الإمكان أن توحي الجملة على لسان يوسف بشيء من هذا التفاؤل بعد هذا العفو الشامل منه ، خاصة ونحن لا نشمّ شيئاً كهذا من الجملة التي استعملها الأخ الأكبر « ارجعوا » ؟ .

ألم يتحقق كل الذي قاله أبوهم لهم آخر العهد ؟

ألم يهدأ الإخوة نفساً ويرتاحوا بالا ويقروا عيناً بشأن يوسف وأخيه ، ويدخل فيهم ضمناً أخوهم الأكبر ؟ .

ويتساءل الإخوة في أنفسهم : وهل سيطيق يعقوب تحمّل فرح المفاجأة ؟

ليت لنا أجنحة فطرنا بالبشارة إلى والدنا ، علّنا ننقذه من شبه الهلاك الذي هو فيه ، والذي يوشك أن يكون هلاكاً فعلا .

إنا لنأمل ألاّ تكون حالته قد ازدادت سوءا عما تركناه آخر مرة .

إن كل الرياح تهب الآن في صالحنا ، ونبتهل إلى الله العلي القدير أن يكون حظ والدنا منها موفوراً .

ولكن الذي ينغص علينا كل هذه السعادة حقاً ، هو العمى الذي حل بكلتا عينيه .

ومن السبب الحقيقي وراء ذلك ؟

نحن .

وإلى متى يظل يطاردنا شبح هذه الجريمة ، بينما صاحب الحق قد تنازل ، ودعا لنا أرحم الراحمين بأن يغفر لنا خطايانا ؟

وفجأة يرن في آذانهم جملة « اذهبوا » التي ابتدأت بها الآية التي خُصّ بها في جملتها يعقوب عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ .

وتأمل الباء من قوله « بقميصي » التي تدل على المصاحبة ، والمعنى : اذهبوا وفي صحبتكم قميصي .

وتأمل اسم الإشارة « هذا » المخصص لقميص معين ، ونكتفي في هذا الصدد بالقول : إن يوسف عليه السلام الآن ، نبي من أنبياء الله تعالى ، وإن هذا القميص بالذات ، وسيلة إظهار معجزة من معجزاته صلى الله عليه وسلم كما تقول بذلك الآية .

وواضح ثقته عليه السلام في ربه ، فهو يخاطب إخوته في لهجة المطمئن إلى أن مولاه لن يخيب له رجاء ، ولن يرد له طلباً .

أليست إشارته على إخوته بإلقاء قميصه على وجه أبيه كي يرتد بصيراً ، بإذن من مولاه وإرادته ؟

فكيف لا يتّسم كلامه بالثقة المطلقة والاطمئنان غير المحدود ! .

وإنه عليه السلام ، لم يَعْرِفْ حقيقة والده بإعلام من مخلوق ، بل لم يأت له ذكر في هذا المشهد إلا في هذه الآية .

ويتصل بثقته عليه السلام المطلقة في مولاه ، أن ذكره لأبيه ، في هذه الآية التي تتعلق في مجموعها به ، لم يأت إلا في نصفها الثاني ، وبعبارة أخرى حيث تتمّ ذكره .

إنا نتلو هذا القسم من الآية ﴿اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه .. » ولا نعرف أنها تتعلق بيعقوب حتى نأتي بالمضاف إليه « أبي » .

وإن القميص لا يلقى على وجه يعقوب من أجل وجهه ، وإنما من أجل عينيه ، فليس هناك اتصال مباشر بين القميص والعينين ، وهذا من أسرار المعجزة .

وإن هناك علماً لدنياً خصّ الله تعالى به يوسف ، فكان على علم تامّ بكلّ ما حل بأبيه ، وأوحى إليه مولاه بأنه آن الآوان كي يرتد إلى يعقوب بصره ، وأن ذلك سيتم ، بإذنه تعالى ، عن طريق إلقاء قميص يوسف على وجه أبيه ، معجزة ليوسف عليه السلام .

كل هذه الحقائق ، جعلت يوسف البارّ بأبيه ، يقدم دلائل البشائر بين يدى قوله بعد ذلك : « يأت بصيراً » الذي أثلج أفئدة الإخوة خاصة وأنه جاء بعد قوله : « أبي » مباشرة .

لقد تبين الإخوة أن العمى سيذهب إلى غير رجعة ويعود النور إلى كلتا عيني يعقوب ، وبذلك يذهب آخر أثر سيء يؤلمهم في قضيتهم مع يوسف .

وقد أخذ الإخوة قوله قضية مسلّمة .

وتمثّل الإخوة بهجة أبيهم بهذه الأنباء وعودة الإبصار إليه ولم الشمل .

وهكذا هجم السرور على الإخوة من كلّ ناحية حتى كاد يبكيهم .

ونود أن نقف عند لفظ وجه من قول يوسف ﴿ فألقوه على وجه أبي ﴾ .

فهل وجه يعقوب المريض أم عيناه ؟

عيناه بطبيعة الحال ، والعينان جزء من الوجه .

فلم قيل « فألقوه على وجه أبي » ؟

ولا يخفى أنه أساساً لا يمكن أن يقال : « فألقوه على عيني أبي » .

ثم إنه ليس هناك شيء يمكن أن يلقيه بشر على عيني مخلوق ، فضلا عن إلقائه على وجهه ، كي يرتد الأعمى بصيراً .

وإن الإتيان بلفظ الوجه هنا ، دليل بليغ على أن ارتداد الإبصار إلى

يعقوب ، بإذنه تعالى ، إنما تمّ بفعل قوة خفية وسر عظيم وضعه القادر على كل شيء في قميص يوسف (١) .

ونفرّ إلى القول : إنها المعجزة له عليه السلام ، التي خصه الله تعالى بها والتي جعلت القميص يلامس الوجه فتبرأ العين « وكان الله على كل شيء مقتدراً » (٢) .

ونود أن نقف أيضاً عند قوله تعالى : « يأت بصيراً » .

فلماذا أتت جملة يأت هنا ، بينما جاءت جملة « ارتد » للدلالة على نفسه في قوله تعالى : «فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً» ؟

والجواب على ذلك أن جملة « يأت » بمعنى يرتد ، تعتبر مهيئة الإخوة لتلقي بشارة جديدة أتت بها الجملة نفسها التي تكررت مباشرة في قوله : « وأتوني بأهلكم أجمعين » (٣)

ومَنْ هم الأهل ؟

إنهم الذين سبق أن جاءوا في قول الإخوة ﴿مسّنا وأهلنا الضرُّ﴾ يريدون أنفسهم وأباهم وذويهم .

وما هي البشارة الجديدة ؟

إنها النعمة التي حمد يوسف عليه السلام ربه من أجلها حينما جاء على لسانه قوله تعالى:﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾ .

ألم يأت الإخوة من أجل الطعام ضمناً ؟

أليس أهلهم في شدة بسبب المجاعة التي ما زالت قائمة ؟

ألم يطلب الإخوة من العزيز صراحة أن يتصدق عليهم ؟

---

١ ـ معروف ان هناك دورين اخرين لقميص يوسف : الاول : حينما جاء به الاخوة بعد جعل يوسف فى غيابة الجب ، وعليه دم كذب . والثانى : حينما استبق هو وامراة العزيز الباب وقدت قميصه من دبر . وكان دليلا على براءته عليه السلام

٢ ـ الكهف : ٤٥

٣–أشرنا في مقدمة الطبعة الثانية لهذا الكتاب النظرية الإعجازية القرآنية اللغوية التي أكرمنا الله تعالى باكتشافها بشأن جملتي جاء وأتى . إن جاء تستعمل دليلاً على القرب الزماني والمكاني والنفسي ، وإن أتى تدل على عكس كل ذلك .

إن الإخوة وأهلهم أجمعين سينعمون في مصر بالخير الوفير ، أليست هذه بشارة جديدة لهم ولأهلهم ولأبيهم على السواء ؟

أليس عزيز مصر هو يوسف عليه السلام الذي آتاه الله من الملك ؟

وكيف يكون فرح يعقوب عليه السلام وقد علم أن ابنه قد اصطفاه الله بالنبوة وتحقق فيه قوله سابقاً : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم ﴾ ؟

ولا ننسى أن يوسف عليه السلام مسؤول عن رعاية مصالح قومه الدنيوية ، لهذا كان طبيعياً أن يطلب أهله إليه وليس العكس ، ويدخل فيهم ضمناً والداه ، لأن مصر مكان تعبير الرؤيا التي تدلّ على منزلة يوسف الدنيوية والدينية .

وفوق ذلك هو رجل موحى إليه ينفذ ما يأمره به مولاه .

ثم ننتقل إلى بقية الآيات الدالة على برّ يوسف بأبويه وشكره لمولاه ، قال تعالى : ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ، إنّ ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ، ربّ قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السماوات والأرض ، أنت وليّ في الدنيا والآخرة ، توفني مُسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ .

وهكذا ضمّ يوسف أبويه وقرّبهما منه . وواضح أنه عليه السلام يعلّق دخولهم مصر ، مصحوبين بالأمن والطمأنينة ، بمشيئة الله تعالى وإرادته ، وهذا درس يلقيه علينا يوسف عليه السلام . وهو يذكّرنا بقوله تعالى مخاطباً رسوله الكريم : ﴿ ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً ، إلا أن يشاء الله ،

واذكـــر ربك إذا نســـيت ، وقل عسى أن يهـــدين ربي لأقرب من هـــذا رشداً ﴾(١) .

ويرفع عليه السلام أبويه بالذات على السرير . قال تعالى: ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً﴾ .

والخر معناه السقوط ، فكأن المعنى ، والله أعلم ، أن إخوة يوسف وأباه وأمه ، بعد أن رفع يوسف أبويه على العرش وارتفع هو نفسه قاموا بهذه الحركة بقصد التّحيّة ليوسف والاحترام .

ويفهم من هذه الجزئية أن هذه الحركة ، بقصد التحية ، كانت جائزة آنذاك (٢) .

والذي يجعل ضمير المفرد الغائب لا يعود إلا على يوسف فقط ، هو أنه عليه السلام حينما قص رؤياه على يعقوب في أول السورة ، حرص على تضمين تعبيره القول: « لي ساجدين » فدل ذلك على أن السجود بقصد التحية إنما كان له هو بالذات .

ولو لم تتضمّن الآية قوله: « لي » لكان من الجائز أن نفهم أن يوسف قد لا يكون هو المقصود بالضرورة .

والذي يدل أيضاً على أن الضمير في « وخروا له سجداً » يعود على يوسف القول الذي جاء على لسانه بعد ذلك مباشرة: ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقّاً﴾ فهو يشير إلى قص يوسف رؤياه على والده ، وأن هذه الرُّؤيا قد عبّرت الآن ، وهذا الذي كان ينتظره يعقوب عليه السلام .

وإنّ لفظة العرش التي جاءت في الآية ، والإشارة في القول على لسانه

---

١ ـ الكهف ٢٣ ، ٢٤

٢ ـ لقد تبين من قبل أن للسارق حدا هو الاسترقاق ، وحدد البعض ذلك بعام واحد . كما انه فهم من قول الاخوة «وتصدق علينا» أن الصدقة كانت جائزة فى آل يعقوب والله أعلم .

بعد ذلك إلى الملك الذي منحه الله تعالى يوسف يجعلاننا نشير إلى حقيقة الدور العظيم الذي قام به يوسف عليه السلام دنيوياً إضافة إلى دوره الديني .

فلم نسمع مطلقاً أن الإخوة – وهم من الفئات الكثيرة التي كانت تقصد يوسف – في كل ما حل بهم من قبل ، فكروا في عرض سوء حالهم على غير يوسف .

وذلك دليل على المنزلة العظيمة التي كان يتمتع بها من وصل إلى منصب عزيز مصر .

وإنه عليه السلام ليضرب لنا المثل الأعلى في النجاح الباهر الذي يمكن أن يحققه رجل الدين في المجالين : الدنيوي والديني .

إنه من خير الذين جمعوا بين الحسنيين ، فلم ينس نصيبه من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليه .

وهذا درس بليغ يلقيه عليه السلام على أمة الإسلام بأن صلاح الدنيا من صلاح الدين ، وعلى الحاكم بأن يكون خليفة الله في أرضه ، وأسوة حسنة للمحكومين .

وإنّ لسان حاله عليه السلام يقول لنا : إن الخطأ كلّ الخطأ أن يُفْصل الدين عن الدولة .

وإن الخطأ كل الخطأ أن يقف رجل الدين من الحياة موقفاً سلبياً

ثم إنه عليه السلام قد ضرب المثل الأعلى في الأمانة منذ حداثة سنه حتى توفاه الله تعالى .

ألم يكن أميناً على عِرض العزيز وأهل مصر وأموالهم ؟

ألم يكن يتصرف باستمرار في حدود صلاحيات منصب عزيز مصر ؟

والآن مع هذا القول على لسانه الذي يعتبر قمة في تواضعه عليه السلام وأدبه ، قال تعالى : ﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن﴾ .

إنه لا يتعرض لسبب دخوله السجن وهو المظلوم ، فهذا ابتلاء من

العليم الحكيم ، ولكنه يشيد بفضل الله عليه بإخراجه من السجن الذي كاد يبقى فيه ، لولا لطف الله به ، إلى أن يُتَوَفَّى .

إنه عليه السلام ليبدو في هذا القول والذي يليه أيضاً: ﴿وجاء بكم من البدو﴾ عبداً شكوراً . حيث منّ الله تعالى على يعقوب وآله إضافة إلى لم الشمل بالخير الوفير .

وتأمل هذه الجزئية ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾ الدالة على لطف التعبير وحسن التعليل .

إذ ينسب الفساد إلى الشيطان الرجيم .

ثم إنه عليه السلام يجعل نفسه طرفاً ثانياً في قوله : ﴿بيني وبين إخوتي﴾ وكان بإمكانه ، وهو المجني عليه ، أن يعبر في طريقة أخرى لا تجعله طرفاً ثانياً للمسيئين إليه .

ولكنه الخُلق النبيل الذي يجعله يمس هذه القضية التي اضطر للإشارة إليها مساً رفيقاً لا يؤلم الإخوة البتة .

ثم هو يقول « إخوتي » ولا يقول : بعض إخوتي ، كي يخرج شقيقه من بينهم ، لأن في ذلك إيلاماً شديداً لهم وهو ما يأباه عليه السلام ويرفضه رفضاً باتاً .

والحقيقة أن ما جاء على لسانه عليه السلام مخاطباً أباه ﴿هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾ يعتبر عرضاً سريعاً موجزاً مركزاً متضمناً أهم ما صادفه عليه السلام منذ الرؤيا حتى تعبيرها في تلك اللحظة التي يخاطب فيها أباه .

ويأتي بعد ذلك قوله كما جاء في الآية : ﴿إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم﴾ .

إن إرادته تعالى قد شاءت أن يجتمع له عليه السلام النبوة وشيء من

الملك ، وأن يلم شمل آل يعقوب أخيراً ، وسبقت ذلك ألطاف خفية التدبير من العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، الحكيم الذي يجيء كل تدبير منه على وجه الحكمة والصواب .

وإنا لنتساءل لماذا قال عليه السلام : « ربي » ولم يقل مثلا : إن الله لطيف لما يشاء ؟

والجواب على ذلك أنه عليه السلام يريد أن يعبّر عن امتنانه لإنعام الله تعالى عليه ، وإن لفظ الرب خير دليل على ذلك .

ثم إنه عليه السلام يعتبر المحور الرئيسي الذي دارت عليه القصة من أولها إلى منتهاها .

وحينما قصّ على والده في إيجاز ما جرى عليه كان لضمير المتكلم الذي تكرر أكثر من مرة ، دوره الذي لا يخفى ، لذلك كان طبيعياً أن يستمر عليه السلام مستعملا الضمير نفسه في قوله : « إن ربي لطيف لما يشاء » .

وتأتي مباشرة هذه الآية على لسانه (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السماوات والأرض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) .

وهي تدل على أننا بصدد العبد الشكور ، نبي الله يوسف عليه السلام ، القمة في الأدب والتواضع .

إنه يعترف بمنّ الله وفضله عليه بإيتائه شيئاً من الملك ومن تأويل الأحاديث .

وإن حرف الجر « من » الذي يدل على التبعيض الذي جاء مرتين ليدل من ناحية على أن الملك وتأويل الأحاديث من أهون الأشياء على الذات العلية ، ومن ناحية ثانية على أنه تعالى قد خصه عليه السلام بهذه الهبة .

وبهذا يجمع عليه السلام بين شكر النعمة وإعطائه نفسه قدرها الذي تستحق . فإن المُلْك الكامل والعِلْم التام لمبدع السماوات والأرض .

إن الجمع بين الملك والعلم اللدني لا يهبهما الله معاً إلا لمن اصطفى ، كنبي الله يوسف الذي يفوّض أمره ، كما تقول الآية ، إلى الله تعالى في الدنيا والآخرة ، والذي يطمع أن تكلأه عناية الله مدة بقائه في الدنيا ، وأن يكمل تعالى فضله بإحسانه ، بأن يكون له الحظ نفسه في الآخرة أيضاً .

وما الشرط الأساسي الذي لا يتحقق أي طلب بدونه ؟

أن يكون المرء مسلماً لله رب العالمين ، عابداً له وحده دون سواه ، مخلصاً له العبادة .

وهنا يدعو عليه السلام ربه أن يمنّ عليه ، حينما يقدّر عليه الوفاة ، بنعمة الإسلام .

إنه عليه السلام ، وقد اصطفاه الله تعالى بالنبوة ، لم يصرفه ذلك عن معرفة حقيقة قدر نفسه . بل كان ذلك حافزاً له على عبادة الله تعالى ، وأخذ جانب الحذر والحيطة ، والأدب والتواضع ، إنه يدعو الله تعالى بما يدعو به كل مسلم لله رب العالمين « توفني مسلماً » .

وتأتي الجزئية التي يدعو بمثلها أيضاً كل مسلم ، والتي تعتبر استمراراً لتواضعه عليه السلام وأدبه مع بارئه ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ .

الكل يعرف أن درجة النبوة ليس فوقها درجة ، وقد مُنحها يوسف عليه السلام (١)

ومعروف أن منزلة الشهيد عند الله فوق منزلة الصالح . فبماذا يدعو نبي الله يوسف ربه ؟

إنه يدعوه بأن ينعم عليه في الآخرة بأن يكون من الصالحين والصالحين فقط ! بل إنه عليه السلام لا يقول مثلا : واجعلني من الصالحين : مما يُفهم أن له عليه السلام حقّاً من نوع ما في ذلك إنما يجيء على لسانه « وألحقني بالصالحين » .

ويُفهم من الإلحاق أن ذلك تفضل وتكرم منه تعالى عليه .

يا لهُ من أدب ، ويا له من تواضع جمّ ، ويا له من درس بليغ نافع يلقيه نبي الله يوسف على أمّة الإسلام .

(١) انظر الآية الكريمة رقم ٣٤ من سورة غافر ففيها ذكر اسم يوسف عليه السلام . الإشارة إلى مرتبة الرّسالة .

الفصل الرابع

أ- المجتمعات في سُورة يوسُف عليه السَّلام

ب- الدروس المستفادة مِنْ سُورة يوسُف عَليه السَّلام

(أ) المجتمعات في سورة يوسف عليه السلام :

عرضت سورة يوسف بشقيها القصصي والتعقيبي للعديد من المجتمعات.

ففي الشق القصصي عرضت للمجتمعين : الشامي والمصري زمن يوسف عليه السلام ، بالإضافة إلى إعطائنا شيئاً من المعلومات عن روح ذلك العصر .

وفي الشق الثاني إشارة إلى المجتمع المكي وموقف العرب من دعوة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الانتقال إلى الأمم السابقة التي اتخذت موقفاً مشابهاً لموقف المكيين والعرب بعامة ، إذ انقسموا في كل العصور ، كما انقسم هؤلاء إلى فرقتين : القليلة وهم المؤمنون والكثيرة وهم المكذبون .

وكان النصر دائماً وأبداً حليف جند الله . قال تعالى : ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (١) وقال ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون﴾ (٢) .

المجتمع المكي ونظائره

مع أن القسم التعقيبي في سورة يوسف يشير إلى كثير من المجتمعات ، إلا أننا بحكم تشابهها يمكن أن تكون صورتها قريبة من مجتمع الجزيرة العربية في فجر الدعوة الإسلامية .

وعلى ذلك يمكن اعتبار مجتمع الجزيرة العربية رمزاً للمجتمعات السابقة ، كما يمكن اعتبار موقف المجتمع المكي بخاصة رمزاً لموقف كل مجتمع من النبي المرسل إليه .

وبتأملنا لهذه الجزئية ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى﴾ أمكن أن نفهم أن حكمة الله تعالى ، ضماناً لنجاح دعوة

---

١ ـ الروم ، ٤٧

٢ ـ الصافات ، ١٧١ ـ ١٧٣

كل رسول ، قد اقتضت ألا يبعث إلا في مجتمع له استعداد من نوع معين لتقبل الدعوة ولو بعد حين .

وقد أمكن أن نستنتج من هذه الحقيقة ، ومن مواقف العرب المختلفة من الدعوة أن المجتمع العربي ينقسم آنذاك إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أهل القرى ، وهم الذين لهم ذوق حضاري من درجة معينة ، ويميلون إلى الاستقرار . وهؤلاء هم الذين يُبْعث منهم وفيهم الرُّسل بنصّ القرآن .

القسم الثاني : أولئك الذين لهم من الحضارة والبداوة نصيب . هؤلاء لا يقبلون الدعوة سريعاً ولا يدفعونها طويلا .

القسم الثالث : الأعراب الموغلون في البداوة ، وقد ذم القرآن الكريم معظمهم ومدح بعضهم .

قال تعالى مثلا في سورة التوبة(١) : ﴿ الأعرابُ أشدُّ كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم . ومِنَ الأعراب من يتخذ ما ينفق مَغْرَماً ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم ، ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرّسول ، ألا إنها قربة لهم ، سيُدْخلهم الله في رحمته ، إن الله غفور رحيم ﴾ .

ومع أن إرادة الله تعالى اقتضت أن يغلب جنده ، إلا أن ذلك لا يتم إلا بعد تعب شديد . ويشترك في هذه الحال ، المجتمع العربي بأقسامه المختلفة مع كل مجتمع يبعث الله تعالى فيه رسولا .

قال تعالى : ﴿ حتى إذا استيأس الرُّسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ . إن القاعدة واحدة وثابتة ينجي الله المسلمين له ، ويهلك الكافرين .

---

١ ـ آيات ٩٧ـ٩٩

وهكذا يتضح ما سبق أن ألمحنا إليه من أن المجتمع العربي ، وقت البعثة المحمدية ، يمكن أن يكون رمزاً لكلّ المجتمعات السابقة التي يبعث فيها رسل الله ومن هنا كانت معالم هذه المجتمعات المتشابهة ، في القسم التعقيبي من السورة واضحة ، والتعامل معها سهلا ميسوراً .

الملامح المشتركة في عصر يوسف عليه السلام

فإذا تحولنا إلى القسم الأول من السورة ، اتضح أنه يعطينا بعض ملامح العصر ، كما يعطينا في شيء من الوضوح ، بحكم السرد القصصي بعض ملامح المجتمعين : الشامي والمصري زمن يوسف عليه السلام .

وحينما نتكلم عن ملامح العصر فينبغي أن نوضح أن المراد بذلك في المقام الأول الملامح المشتركة بين المجتمعين : الشامي والمصري . فإلى ملامح العصر المشتركة .

من ملامح العصر الذي عاش فيه يوسف عليه السلام الرؤى وما يتعلق بها من حرص على تعبيرها ووجود معبّرين تختلف قدراتهم على التعبير .

وكأنّ إرادة الله تعالى اقتضت أن يتحدى عليه السلام بقدرته الخارقة على تعبير الرُّؤى كل المعبرين في عصره ، قياساً على جعل الله تعالى معجزة موسى عليه السلام من جنس ما تفوّق فيه قومه من السحر ، ومعجزة عيسى عليه السلام من جنس ما برع فيه قومه من الطب . ومعجزة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم من جنس ما نبغ فيه قومه من الفصاحة والبلاغة .

إن الرؤيا تصادفنا في كل من المجتمعين : الشامي والمصري .

فهناك رؤيا يوسف والساقي والخباز والملك . وإن كل الرُّؤى تعبر . وقد أثبت عليه السلام أنه أعبر الناس للرؤى .

وكان جو الرؤى قادراً على فرض معجم لغوي من نوع معين . كما أمدنا بالكثير من المعلومات المفيدة عن طبيعة كل من المجتمعين أو المكانين .

وقد لا نكون مغالين حينما نقول:إنا نستطيع أن نفهم من القول على

لسانه عليه السلام: ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ الطبيعة الصافية غالباً لسماء المنطقة التي كان فيها عليه السلام آنذاك ، إضافة إلى صفاء نفس يوسف وإشراقه الروحي (١) .

ومن ملامح ذلك العصر الحركة التجارية الدائبة الممثلة في تلك القوافل المتجهة في كل صوب . فليس اتجاه السيارة ، من الشام إلى مصر ، الذين أسروا يوسف بضاعة إلا رمزاً لقوافل أخرى تسير في كل وجهة .

وإن الإخوة الذين رحلوا إلى مصر فالشام أكثر من مرة إنما كانوا يشكلون جزءاً من القافلة وليس كل القافلة . بدليل أن المنادي يجيء على لسانه ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ وليس مثلا : أيتها السيارة ، مما قد يفيد أنّ العدد محصور في الإخوة .

وكان التجار يتعاملون في البيع والشراء بالدراهم وأحياناً تتم عملية تبادل البضاعة .

إنه عليه السلام بيع بثمن بخس دراهم معدودة ، بينما دفع الإخوة مقابل الميرة التي أخذوا من العزيز بعض الأشياء العينية التي جاءوا بها من الشام(٢) . فهذا هو الذي يفهم من لفظ « البضاعة » ومن الجائز أن يتسع اللفظ فيشمل الدراهم .

وكان الناس آنذاك يتعاملون بالكيل مع الحبوب وليس بالوزن .

ويظهر في ذلك العصر التعامل مع الرقيق أياً كان لون بشرته .

فمع أن الغلام يوسف أبيض اللون . إلا أنه جاز أن يباع بأنه مملوك .

ومن الجائز أن القائل في قوله تعالى : ﴿ قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ ليس بعيداً عن ذهنه التقاط بعض السيارة للغلام يوسف ومعاملته معاملة المماليك .

---

١ ـ سنبين ان شاء الله تعالى شيئا من دور الرؤى فى امدادنا بالكثير من المعلومات من المجتمع اثناء حديثنا عن المجتمع المصرى على وجه الخصوص .

٢ ـ انظر هنا في ظلال القرآن ١٢/١٣

ومن الظواهر الاجتماعية في ذلك العصر وكل عصر ، وجود العنصرين البشريين الطبيعيين ، الصالح وغير الصالح . عرفنا ذلك في كل من المجتمعين الشامي والمصري ، وينبغي أن يكون في كل المجتمعات الأخرى .

فعلى الرغم من وجود يعقوب عليه السلام في الشام ، حيث ينبغي أن يكون له هناك أجمل الأثر ، إلا أنه يحذر يوسف من قص رؤياه على إخوته « إن الشيطان للإنسان عدو مبين » وإن الذي يجوز على أبناء نبي الله يعقوب ، يجوز من باب أولى على سواهم .

وقد جاء على لسان هؤلاء الأبناء ، خطاباً للباحثين عن الصواع ، الإشارة إلى المفسدين في الأرض ﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ فدل ذلك على أن هذا العنصر المفسد موجود بالإضافة إلى العنصر الآخر بطبيعة الحال .

واستتبع وجود العنصر المفسد وضع العقوبات فللسارق مثلا جزاؤه . وللخائن جزاؤه .

وبما أننا بصدد مجتمعين ، أحدهما ديني والآخر غير ديني ، فقد اختلفت عقوبة الجريمة الواحدة .

إن حد السارق في الشريعة الإبراهيمية أن يسترقّ ، وحدد البعض ذلك بعام واحد . أما في عرف المصريين فيغرم السارق مثليّ ما سرق دون استرقاق

وبعد هذه اللمحة السريعة عن بعض ملامح العصر التي أمكن استخلاصها من قصة يوسف عليه السلام ، نتنقل إلى محاولة أخرى من النوع نفسه بشأن المجتمعين الشامي والمصري ، فإلى :

المجتمع الشامي

المراد بالمجتمع الشامي في سورة يوسف يعقوب عليه السلام وآله ، أبناؤه على وجه الخصوص ، إذ إنّ يعقوب وأبناءه فقط ، هم الذين لهم أدوار إيجابية .

وبما أن سورة يوسف إنما تعرض لهذا البيت فقط ، بينما تعرض للعديد من الشخصيات المصرية المتنوعة ، فمعنى هذا أن الصورة الاجتماعية التي يمكن تصورها للمجتمع الشامي ، تمثل بالضرورة زاوية واحدة . أو ناحية واحدة ، بعكس صورة المجتمع المصري .

إن يعقوب ويوسف عليهما السلام يمثلان الجانب المشرق في المجتمع الشامي . ويجب أن يكون ليعقوب عليه السلام بالذات ، في المجتمع الشامي أطيب الأثر .

ونستطيع أن نتبين هذا الأثر الطيب في أبنائه عليه السلام ، فإذا استثنينا وقتاً من الأوقات يوسف وشقيقه ، باعتبار أنهما صغيران غير مكلفين ، فقد كان باقي الأبناء بدون استثناء قمة في الصلاح والتقوى ، إلا في معاملتهم للشقيقين .

وحينما ينهى يعقوب ابنه يوسف أن يقصّ رؤياه على إخوته ، فكأنه يخشى أن يمثل أبناؤه بتورطهم في الكيد ليوسف ، بعض ما يجري في ذلك المجتمع من شرور .

وسنحاول رسم الصورة لهؤلاء الإخوة التي يمكن استقاؤها من هذه السورة تلك الصورة التي يغلب على الظن أن لها نظائرها في ذلك المجتمع .

إن أبناءه عليه السلام يلوحون من الأقوال التي تجيء على ألسنتهم رجالا بكل ما تحمل هذه اللفظة من معان .

ولا نتبين هذا من قول البعض منهم بقتل يوسف ، فإن هذا يدلّ على بغضهم الشديد له ، وليس من الرجولة في شيء أن يقدم عدد من الرّجال على عمل كهذا تجاه غلام صغير .

إنما نتبين هذا من تنكير لفظ الأرض في قوله تعالى على لسانهم : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ﴾ .

إن مجيء هذا اللفظ منكراً ، دليل على أن عند هؤلاء القدرة على أن يتجهوا في كل ناحية بقصد أن يجدوا الأرض الموافقة لطلبهم . وإنما كانت

هذه القدرة عندهم لأنهم اعتادوا من قبلُ الضرب في أرضين ، منها ما وافق بغيتهم الآن .

ومن مظاهر رجولة هؤلاء الإخوة أنهم في فسحاتهم يقومون بألعاب رياضية معينة وبالاستباق بقصد تهيئة أجسامهم لتحمل مشاق الحياة بمختلف الأنواع ، وقد جاء على لسانهم قوله تعالى : ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ﴾ وقوله ﴿ يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ .

ولم يكن الإخوة يجهلون ما يمكن أن يقوموا به من أعمال فقد كانوا غير راضين عن حب يعقوب للشقيقين أكثر من حبه لهم وهم عصبة من الرجال تعصبُ بهم الأمور . وكان منهم على حقّ ، استهتار بعيد المدى بالذئاب .

كما كان هؤلاء الإخوة الرجال يقومون في نزهاتهم بكل ما يحتاجون إليه من استخراج ماء وحمله وذبح الحيوان الذي سيتخذونه طعاماً لهم وجمع حطب وما إلى ذلك .

لقد قاموا في رحلتهم مع يوسف بكل ذلك دون معاونة من أحد ، بدليل أنهم هم فقط الذين يعرفون حقيقة وضع يوسف في غيابة الجب .

ومن مظاهر رجولة هؤلاء الإخوة أنهم يستطيعون أن يذهبوا بعيداً في رحلاتهم ، فخروجهم مع يوسف رمز لخروجهم دائماً .

وقد حددت طبيعة المنطقة التي هم فيها وجهات خروجهم فهي منطقة يعتمد فيها على الآبار ، وذلك دليل على أن أقرب نهر من المنطقة يبتعد كثيراً عن الجبّ الذي وضع فيه يوسف مثلا . وهو بدوره يبتعد عن المكان الذي فيه آل يعقوب .

وكل ذلك يعني أن لدى الإخوة الشجاعة الكافية لأن يسيروا عمقاً في كل اتجاه بتلك المنطقة التي تغص بالذئاب وربما بسواها أيضاً ، والتي تعدّ فيها الآبار التي حفرت لبعد الأنهار . والاعتماد على الآبار في تلك المنطقة دليل على أنها ليست منطقة زراعية كوادي النيل مثلا .

ويجب أن يكون للمنطقة التي تلك صفتها أثر من نوع معين في السكان . فالأرض حينما لا تكون زراعية فمن الجائز أن تطبع السكان بطابع الارتحال والتنقل .

فإذا اتخذنا أبناء يعقوب رمزاً لسواهم ، وهم قمة في الصلاح ، باستثناء معاملتهم للشقيقين ، وعرفنا أنه يجب أن يكون في ذلك المجتمع أثر حسن ليعقوب عليه السلام وآله ، ولم يكن شيء من ذلك موجوداً آنذاك في المجتمع المصري ، استطعنا أن ننتهي بيسر إلى أنّ المجتمع الشامي أكثر تديّناً من المصري ، ومن هنا برزتْ الحاجة لبقاء يوسف عليه السلام في مصر ، كي يقوم بما يقوم به يعقوب وآله في الشام .

المجتمع المصري

بما أن سورة يوسف ، فيما يتعلق بيوسف عليه السلام في مصر ، تتعرّض لشخصيات عديدة ، تنتمي إلى طبقات اجتماعية مختلفة ، بخلاف تعرضها لفئة معينة تنتمي إلى طبقة معينة في المجتمع الشامي ، لذلك أمكن أخذ صورة عن المجتمع المصري تزيد عن المجتمع الشامي وضوحاً .

وصادف أن السورة تعرض لرأس البلاد ومن يليه مباشرة ، كما تعرض لشخصيات تنتمي إلى طبقات مختلفة . ومن هنا كانت صورة المجتمع المصري أكثر تكاملاً .

إن رأس البلاد ، أعني الملك ، يبدو لنا خلال السورة رجلا حازماً حليماً ، حسن التصرف حكيماً ، جاهراً بالحق ألمعيّاً ، مهيب الجانب .

يبدو حزمه وحلمه من التصرف بأمره مع كل من الخباز والساقي .

ويبدوحسن تصرفه في القول على لسانه: ﴿ يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي ﴾ فإن هذا قول من يأخذ بمبدأ الشورى ويوقّر أتباعه ومن يبادله أتباعه المثل .

ويبدو جهره بالحق من القول على لسانه ، خطاباً للنسوة ، وقد ثبت له براءة يوسف : ﴿ ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ .

وتبدو ألمعيته من موافقة حدسه في يوسف لحقيقة مخبره .

ويبدو جانبه المهيب من شخصيته القوية التي يجب أن تكون لرجل تلك أعماله ، ومن حقنا أن نفهم جانباً من منزلته من الطريقة التي يُحيّا بها قياساً على قوله تعالى عن يوسف عليه السلام : ﴿وخرّوا له سجداً﴾ .

والطبقة التي تأتي مباشرة العزيز ومنْ يمثلون علية القوم وأشراف المجتمع كملأ الملك والمسؤولين في الدولة الذين تتدلى رتبهم .

فهناك المؤذّن رئيس فتيان العزيز الذي نعتقد أن له مكانته المعتبرة ، بدليل القول على لسانه ﴿ وأنا به زعيم﴾ في قوله تعالى: ﴿ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم﴾ وهناك مأمور السجن وهكذا.

ويبدو أن المرأة في ذلك المجتمع أساءت استعمال الحرية التي منحتها .

ويتضح ذلك من موقف امرأة العزيز المتطوّر من يوسف ، المتجه بعد ثبوت براءة الفتى أمام الزوج بشهادة الشاهد ، إلى الأمر الواضح الصريح ، بدلا من أن ترعوى وتعود إلى جادة الصواب ، ومن موقف نسوة المدينة كذلك منه .

ويبدو أنّ زمام الأمور قد انفلت من أيدي الرجال في ذلك المجتمع غير صحيح العقيدة ، بدليل أنّ العزيز . وقد ثبتت له براءة الفتى ، لا يقوم بمجرّد التفريق في السكن ، بين زوجته والفتى .

بل يبدو أن الأمر قد بلغ درجة اليأس من الإصلاح ، وكأن العزيز وغيره ممنْ يعنيهم شأن يوسف ، وقد عجزوا عن ضبط الأمور ، تعللوا بأن الداء عميق وشامل ، وأن الشيء الوحيد الذي يمكن لهؤلاء أن يقوموا به ، هو التخلص من الفتى البريء . وقد ارتضى ضميرهم الميت الحي أن يسجن حتى حين !

ولكن نسبة الموت في الضمير كانت مرتفعة ، فنسي الفتى في السجن ، وكاد يبقى فيه حتى يُتَوفّى لولا أن تداركه الله برحمته .

ويبدو أن النسوة وراء دخول الفتى السجن . وهذا مما يجعلنا نقول : إن الكثير من الأمور ، في ذلك المجتمع غير صحيح العقيدة ، يسيّرها النساء وليس الرجال .

والحقيقة أننا نتبين شبهاً كبيراً بين ما كان يجري في ذلك المجتمع زمن يوسف عليه السلام من حرّية زائفة ، وما يجري الآن في هذا العصر ، في المجتمعات غير الدينية ، أو التي ابتعدت عن روح الدين السماوي .

وإن واجبنا نحن المسلمين أن نستفيد من الدروس العظيمة التي يلقيها علينا القرآن الكريم ، وأن نعمل جميعاً على جعل مجتمعاتنا إسلامية بكل ما تحمل هذه اللفظة من معان ، وأن نكشف زيف المزيفين وخداع الضّالّين المضلين ، نسأله تعالى الهداية والعون والتوفيق .

ومن الأدلة على أن اليأس من الصلاح قد تمكن من القوم ، هو أن الشاهد ذا السلطة الأدبية ، والذي نعتقد أنه من الطبقة نفسها ، على الرّغم من أنه اتّضح له وجه الحق في اتهام امرأة العزيز ، إلا أنه لا يجيء على لسانه سوى هذا القول : ﴿يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين﴾ .

وإنما وضع حد لهذه المسألة هنا ، لأن امرأة العزيز هي المتهمة وليس لأن الفتى هو البريء !

ونعتقد أن لاتهام المرأة الكاذبَ حدّه في قانون القوم الوضعي . ولو كانت المرأة من طبقة أخرى ، غير هذه الطبقة ، لنالت جزاءها .

أو ليس للسارق في عرف المصريين حدّ ؟

أو لم يصلب الخباز جزاء سوء عمله ويبقى في وضعه ذلك حتى أكلت الطير من رأسه ، ردعاً لسواه ؟

أما امرأة العزيز ومن شاكلها فهي فوق هذه القوانين الوضعية التي تطبق على الضعيف ولكنها أضعف من أن تطبق على القوى .

فإذا تحولنا نازلين إلى الشخصيات التي تمثّل العامة ، وجدناها قد طبعتها البيئة بطابعها .

فمصر كما هو معروف بلد خصب يغري السكان بالاستقرار والفلاحة والحرف التي لها علاقة بما تنبت الأرض .

وهنا نجد أنفسنا أمام الساقي الذي يتعامل مع الخمر التي يبيح ذلك المجتمع غير صحيح العقيدة شربها ، وقبل ذلك صنعها اعتماداً على ما تنتجه الأرض مما يصح أن يكون لها أصلا .

كما نجد أنفسنا أمام الخباز وعلاقته بالحبوب واضحة .

ومع الفلاح الذي يزرع ويحصد ويخزن في أماكن حصينة قام البناءون بعملها هي وأبواب المدينة وربما سورها .

نستفيد ذلك من قوله تعالى: ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ﴾ ومن قوله تعالى: ﴿ وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ .

كما نتبين فرحة الفلاح بالغيث بعد طول غيبة ، ونجد أنفسنا مع العصّار . ومعروف أن مصر بلد عصير ، قال تعالى : ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ .

وليس بخاف علاقة الفلاح بالنهر والبقر والسنابل .

وقد صبغت رؤيا الملك بهذا كله في القرآن الكريم وكتب التفسير . قال تعالى : ﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ .

كما لا يخفى علاقته بالكيل وبالذي يدفع ثمناً للمكيل من دراهم أو بضاعة عينية من نوع آخر .

إن الدراهم التي دفعت ثمناً ليوسف عليه السلام يمكن أن تدفع للمكيل ، وقد جاءت الإشارة إلى البضاعة التي قد تكون دراهم أو أشياء عينيّة أكثر من مرة في سورة يوسف ﴿ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ وقال: ﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي ، هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ وقال: ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل ﴾ .

وليس بخاف أن في هذه السورة الكثير من الإشارات إلى عملية الكيل ، وأن الحبوب تكال ولا توزن مثلاً . كما أن هناك الصواع أو السّقاية التي يكال بها الطعام ﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ، قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ﴾

وهناك ملاحظة أخيرة عن ذلك المجتمع بصفة عامة هي أنه يبدو أنه على درجة عالية من الحضارة المادية ، فالنسوة مثلا يستعملن السكاكين في تقطيع الطعام .

وبعد هذه الإشارات السريعة الموجزة إلى المجتمع المصري كما تصوره سورة يوسف ، تبقى إشارة مهمّة جداً هي أن القوم لم يكونوا يعبدون الله وحده . قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام ﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وبما أن يعقوب وآله في الشام ، ويمكن أن يكون لهم أطيب الأثر . لهذا نستطيع أن نقول: إن المجتمع الشامي أكثر تديّناً من المجتمع المصري وربما كان لهذا السبب اقتضت حكمة الله تعالى ليوسف عليه السلام البقاء

في مصر وليس في أي مكان آخر لإخراج القوم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ، وهذا ما قام به يوسف عليه السلام حقّاً .

(ب) الدروس المستفادة من سورة يوسف عليه السلام :

كثيرة هي الدروس المستفادة ، التي تناثرت في السياق الإعجازي للقرآن في هذه السورة المباركة .

وسنحاول بإذن الله تعالى في هذا القسم من البحث ، جمع ما أمكن من حبات عقد هذه الدروس ، نسأله تعالى العون والتوفيق .

١ ـ القـرآن عـربي

قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ إنه بصدد إشارة صريحة إلى أن القرآن الكريم عربي .

وليس بخاف أنّ في القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى هذه الحقيقة ونفي العجمة عنه ، قال تعالى في سورة الشعراء مثلا(١) ﴿وإنه لتنزيل ربّ العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين ، وإنه لفي زبر الأولين ، أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ، ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ، ما كانوا به مؤمنين﴾ . وقال تعالى في سورة النحل(٢): ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ .

وإزاء هذه الحقيقة ، حقيقة أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين ، وحقيقة أن فيه بعض الألفاظ التي أخذها العرب أساساً من أمم أخرى نقول : إن هذه الألفاظ ، غير العربية أساساً ، التي جاءت في القرآن الكريم ، إنما استعارها العرب من الأمم الأخرى وعرّبوها ، شأنها في ذلك شأن الألفاظ الأخرى التي لم تجيء في القرآن .

---

١ ـ آيات ١٩٢ـ١٩٩

٢ ـ آية : ١٠٣

وقد أصبحت هذه الألفاظ قبل نزول القرآن الكريم عربيّة باستعمال العرب لها وحينما نزل القرآن كانت هذه الألفاظ التي جاءت فيه يعرفها العرب وإن لم يبتدعوها . فهي عربية لاستعمال العرب لها قبل الإسلام .

هذه الألفاظ في جملتها تتّصل بالمادّيات وليس بالمعنويات .

ونأخذ على سبيل المثال لا الحصر(١) أباريق ، حكى الثعالبي في فقه اللغة أنها فارسية .

والأرائك ، حكى ابن الجوزي في فنون الأفنان أنها السرر بالحبشية .

وإستبرق ، أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك أنه الديباج الغليظ ، بلغة العجم .

وسندس ، قال الجواليقي هو رقيق الدِّيباج ، بالفارسية .

وأكواب ، حكى ابن الجوزي أنها الأكواز بالنبطية ، وأخرج ابن جرير عن الضحاك أنها بالنبطية ، وأنها جرار ليست لها عرى .

والجبت ، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الجبت اسم الشيطان بالحبشية .

وجهنم ، قيل عجمية . وقيل فارسية ، وقيل عبرانية .

ودينار ، ذكر الجواليقي وغيره أنه فارسي .

والرقيم ، قيل إنه اللوح بالرومية .

وقال أبو القاسم هو الكتاب بها ، وقال الواسطي هو الدواة بها .

وزنجبيل ، ذكر الجواليقي والثعالبي أنه فارسي .

والسجل ، أخرج ابن مردويه من طريق أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : السجل بلغة الحبشة الرجل . وفي المحتسب لابن جني : السجل : الكتاب قال قوم هو فارسي معرب .

---

١ ـ هذه الأمثلة كلها مأخوذة من الإتقان ١/١٣٨ ، ١٣٩

وسجيل : أخرج الفريابي عن مجاهد قال : سجيل بالفارسية ، أولها حجارة وآخرها طين .

وسجين : ذكر أبو حاتم في كتاب الزينة أنه غير عربي .

وسرادق ، قال الجيواليقي : فارسي معرب . وغير ذلك كثير .

ويبدو من هذه الأمثلة ، ما سبق أن أوضحنا من أن العرب إنما استعاروا من غيرهم في الغالب الألفاظ الدالة على الأشياء المحسوسة وليس الألفاظ الدالة على المعنويات .

وقد جاء في الإتقان(١) « قال الواسطي في قوله تعالى: ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ أي زوجها ، بلسان القبط . قال أبو عمرو : لا أعرفها في لغة العرب » .

والمراد بطبيعة الحال أن القرآن الكريم يعبّر بالطريقة التي اعتاد المصريون زمن يوسف عليه السلام أن يعبروا بها عن الزوج ، وهذا من مظاهر إعجازه ، ويقاس على ذلك إطلاقهم آنذاك لقب العزيز على من يتقلد منصب رئيس الوزراء في عصرنا . وإن كلاً من لفظة السيد والعزيز تدل على المنزلة التي للزوج بالنسبة للزوجة ، والعزيز بالنسبة للشعب .

فإذا اتضح هذا استطعنا أن نقول : إن لفظ السيد في سورة يوسف ترجمة للفظ ، أو نقل للمعنى الذي اعتاد المصريون إطلاقه على الزوج . وليس من المعرَّب ، بالمعنى المعروف مثلا للفظة ديباج أو سندس الفارسيتين ، لأن العرب كانوا يستعملون هذه اللفظة العربية الأصل(٢) .

وإن شيئاً كهذا يمكن أن يقال مثلا عن لفظ « لينة » في قوله تعالى(٣) ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾ . فقد جاء في الإتقان (٤) « لينة ، في الإرشاد للواسطي ،

---

١ ـ ١٣٩/١ .

٢ ـ جاء في البحر المحيط ١٤٨/٢ « وقال بعض أهل اللغة : السيّد ، المالك الذي تجب طاعته . ولهذا قيل للزوج سيّد » .

٣ ـ الحشر : ٥

٤ ـ ١٤/١

هي النخـــلة . قال الـــكلبي لا أعلمهـــا إلا بلســـان يهود يثرب » .

فهذا اللفظ لا نستطيع أن نعتبره من المعرّب ، لأن يهود يثرب كانوا يتكلمون اللغة العربية بل وينظمون فيها أشعارهم . ولا يكاد المتأمل لشعرهم يفرّق بينه وبين شعر غيرهم من سكان الجزيرة العربية أو بيئة يثرب ذاتها .

فدلّ ذلك على أنّ مجيء هذا اللفظ في سورة الحشر ، قد رُوعى فيه استعمال القوم ، الذين انتقم الله منهم ، للفظ « لينة » العربي في الدلالة على النخلة فليس ذلك إذنٌ من المعرَّب والله أعلم .

هذه الألفاظ التي عرّبها العرب ، من الأدلة على الصلات بينهم والأمم التي أخذت منها هذه الألفاظ .

وكي تكون هذه الألفاظ معروفة للعرب ويستعملوها استعمالهم لألفاظهم العربية ، فإن ذلك يحتاج لفترة من الزمن طويلة .

والحقيقة أن ما يقال عن الفترة الزمنية التي يحتاجها المعرَّب كي يستقر معناه ويستعمل فيه ، يقال عن اللهجة القرشية نفسها التي نزل فيها القرآن الكريم على النبي القرشي .

إن من أهم الأسباب التي جعلت العرب يصطلحون على اللهجة القرشية لغة أدبية لهم يخطبون فيها وينظمون الأشعار ، أن القرشيين ، بسبب منزلة مكة المكرمة الدينية في نفوس العرب قاطبة ، وبسبب وجود الأسواق العربية بالقرب منهم ، وكانت أسواقاً أدبية إضافة إلى كونها أسواقاً للبيع والشراء ، أتيح لهم ، وهم أهل الفصاحة وأرباب الأذواق المرهفة ، أن ينتقوا من ألفاظ العرب ما راقهم وأن يتجنبوا كل العيوب المبعثرة في كثير من القبائل العربية .

ومن هنا كانت اللهجة القرشية أنقى لهجات العرب ، وتسنّى لهذه اللهجة أن تكون اللغة الأدبية لكل العرب ، باستثناء الذين فرضت عليهم بيئاتهم أن يتجهوا إلى ما وراء الجزيرة العربية ويختلطوا بغير العرب ، كحِمْيَر وسكّان أقاصي اليمن .

وحينما تكون اللهجة القرشية هي لغة العرب الأدبية فمعنى هذا أنها أولى اللهجات بنزول القرآن الكريم فيها . وهذا ما حدث .

وقد جاءت فيه ألفاظ بغير لغة قريش ، عربية أو معرّبة . وإنّ هذه الألفاظ جميعها كانت معروفة للعرب . وقد يغيب عن ذهن الرّجل معنى لفظ واحد ، ولكنه لا يغيب عن أذهان الآخرين بحال .

ونستطيع أن نقول بهذا الصدد : إنه ليس هناك شيء في القرآن يغيب على كل العرب ، قياساً على القول : إنه ليس هناك شيء في اللغة العربية ، يغيب على كل العرب .

وواضح أن هذه الآية الكريمة في سورة يوسف ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ تبيّن السبب الذي من أجله نزل القرآن الكريم على النبي العربي بلغة العرب ، وهو أن يعقله المخاطبُون به أوّلا .

ومعروف أن بعض العرب عقلوه وبعضهم الآخر لم يعقله . ومن هنا جاء التعبير القرآني ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ وقد جاء في الآيات التعقيبية في سورة يوسف ، ما يوافق هذا ، وذلك في قوله تعالى مثلا : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ كما جاء على لسان يوسف عليه السلام ، خطاباً للفتيين في السجن ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

وهذه الآية ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ مرتبطة بالآية السابقة لها ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ .

إن القرآن الكريم مبين لأنه نزل بلسان عربي يفهمه العرب الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم . وقد اقتضت حكمته تعالى ألا يبعث رسول إلا من أهل القرى . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ .

ويقوم بعد ذلك أتباع الرّسول بحمل الرّسالة وتبليغ الأمانة . هذا ما حدث

بالنسبة لعرب الجزيرة العربية وهذا ما قام به المسلمون بعد ذلك . قال تعالى(١) ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ . وقال تعالى (٢) ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته في حجة الوداع أن يبلّغ الشّاهِدُ الغائب ، فربّ مبلَّغ أوْعَى من سامع (٣) .

وفهم من كل ذلك أن على المسلم أن يقوم جهد الطاقة بالإبلاغ ، فكلُّ المسلمين دعاة إلى دين الله تعالى الذي ارتضى لعباده .

وكان المسلمون يكوّنون جيشين ، عسكرياً وثقافياً . وبمجرد أن ينتهي الدور العسكري يبدأ الدور الثقافي الذي أثبت دائماً أنه أطول الجيشين عمراً .

إن مصير الجيوش العسكرية دائماً إلى الضعف فالتلاشي ، بعكس الجيش الثقافي ، الذي يكون أفراده بمرور الأيام هم أبناء ذلك البلد بعد أن تذوّقوا حلاوة الإيمان وقدّروا التضحية العظيمة التي قام بها أوّلا أفراد الجيش العسكري الذين يمكن أن يقال عنهم : إنهم رهبان بالليل فرسان بالنهار .

ولا يخفى أن لغة هذه الثقافة هي اللغة العربية لغة القرآن الكريم . وهذا هو السبب الأول في جعل اللغة العربية التي كانت قبل الإسلام محصورة في الجزيرة العربية ، قادرة على القيام لأول مرة في التاريخ ، وبنجاح منقطع النظير بالدور العالمي .

فكان المسلم الذي يسير في الدولة الإسلامية الممتدة من الصين شرقاً حتى فرنسا غرباً ، لا يكاد يحتاج إلى غير اللغة العربية .

وقد أسهم المسلمون جميعاً في بناء هذه الحضارة العريقة ، فقد كان

---

١ ـ التوبة ، ١٢٢ .
٢ ـ آل عمران ، ١٠٤
٣ ـ طبقات ابن سعد ٢/١٨٦

الذي يريد الخلود لكتابه ، يعمد إلى كتابته في لغة الكتاب العزيز الذي تعهد رب العزة بحمايته وحفظه . قال تعالى : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ . وبذلك ضمن للغة العربية الخلود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فإذا انتقلنا إلى عصرنا الحاضر استطعنا أن نقول : إنّ يوم اللغة العربية خير من أمسها القريب ، وإن غدها بإذنه تعالى خير من يوميها السابقين .

وإن واجبنا نحن المسلمين أن نتكاتف في سبيل رفع راية لغة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن نعلم يقيناً ، أن اللغة التي استطاعت في الماضي في ظل تلك الوسائل الصعبة ، والمواصلات البطيئة ، أن تلعب الدور العالمي بنجاح منقطع النظير ، قادرة على القيام بالدور نفسه بإذنه تعالى في ظل الوسائل السهلة والمواصلات السريعة ، إذا أُحسِنَ الانتفاع بكل ذلك .

ولا نستطيع أن نترك هذه المسألة دون الإشارة إلى الهجوم المنظّم المركّز ، الذي يشنه الحاقدون على لغة الكتاب العزيز والحديث الشريف ، إلى اللغة الفصحى التي يستطيع كل العرب من الشرق والغرب أن يفهموا المتكلم فيها ، بعكس اللهجات المحلية التي يقتصر فهمها على بقعة معينة .

وينبغي أن نستفيد من الأخطاء التي وقع فيها الآخرون والتي يريد لنا الأعداء أن نقع فيها .

فقد كانت هناك لغة تدعى باللاتينية ينطق بها ويكتب كثير من الشعوب الأوربية . وبسبب التعصب للهجات المحلية تفرّعت من تلك اللغة الأم لغات ، فأصبح هؤلاء بمرور الزمن لا يفهمون أولئك وهكذا ، ونتذكر بهذه المناسبة قوله تعالى ﴿فاعتبروا يا أُولي الأبصار﴾(١) فعلى المسلمين جميعاً أن يعضوا على لغة القرآن الكريم والحديث الشريف بالنواجذ .

---

١ ـ الحشر ، ٢

ولا نستطيع بهذه المناسبة أيضاً أن نغفل الحرب الضروس التي يوجّهها أعداء الإسلام إلى الخط العربي الإسلامي ، الخط الذي كُتِبَ فيه مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه .

إن الأعداء ليشنّون حرباً ضروساً على الخطّ العربيّ الإسلامي بقصد عزل الشعوب الإسلامية عن حضارتها التليدة وماضيها المجيد . ويؤسفني أن أقرّر بأنهم نجحوا في ذلك بالنسبة لبعض البلاد الإسلامية .

فقد استطاعوا بشأن الشعب التركي المسلم مثلا ، عن طريق تحويله في الكتابة إلى الحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية الإسلامية التي كتب فيها مصحف عثمان بن عفان ، أن يضعوا حاجزاً منيعاً يحول بين هذا الشعب المسلم وبين ماضيه المجيد ، وأن يقطعوا كل صلة بينه وبين تراثه الإسلامي العريق .

وما زالت هذه الحرب الضروس على أشدها وتستهدف العالم العربي فيما تستهدف،ولا تخفى خطورة هذه الحرب فقصد الأعداء أولا وأخيراً قطع كل صلة بيننا نحن المسلمين وبين كتاب ربنا وسنة نبينا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . نسأله تعالى العون والتوفيق ، والهداية إلى الصراط المستقيم ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ (١) صدق الله العظيم .

٢ ـ أحسن القصص

يشكل القصص جزءاً كبيراً من القرآن الكريم ، وليس المراد من القصص في القرآن الإمتاع مجرداً ، ولكن لإلقاء الدروس النافعة كذلك ، التي تكفل لمن وعاها وعمل بمقتضاها الاهتداء إلى صراط العزيز الحميد .

وبما أن سورة يوسف في مجموعها من هذا النوع القصصي ، وبما أننا بصدد استخلاص الدروس المستفادة من هذه السورة ، فكأننا بهذا العمل

---

١ ـ التوبة ، ١٠٥

نبين الأسباب التي كان القصص القرآني من أجلها أحسن القصص . وهذا في الحقيقة عين المراد ، قال تعالى : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ .

وواضح أن نقطة الانطلاق في قصة يوسف عليه السلام ، عدم ودّ الإخوة له ولشقيقه ، قال تعالى : ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ .

وفي هذا القصص آيات على أن هذا القرآن من عند الله ، وأن محمد ابن عبد الله رسول الله ، وإلا كيف يأتي بهذا القصص على تلك الصورة الرفيعة من الصّحة والدّقة والإعجاز وهو النبيّ الأميّ الذي لا يقرأ ولا يكتب ولم يكن يجالس أهل الكتاب .

لقد استوى حاله صلى الله عليه وسلم بشأن هذا الكتاب بحال العرب الأميين الذين بعث فيهم . إنه عليه السلام إنما عرفه ابتداءً عن طريق الوحي ، وعنه صلى الله عليه وسلم عرفه العرب ، قال تعالى : ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ .

٣ ـ بما أوحينا اليك هذا القرآن

للوحي في اللغة الكثير من الصور ، ولعلها تدور في مجموعها حول الإعلام بالمراد على وجه السرعة ، سواء تم ذلك باللسان أو بسواه ، كأن يكون بالإشارة مثلا أو الوَهْم وهكذا .

أما فيما يتصل بالمعنى الشرعي للوحي ، فإن القرآن الكريم نزل في صورة واحدة ، هي أسمى درجات الوحي قاطبة ، التي ارتضى رب العزة لأشرف كتبه أن ينزل بها على خير رسله ، وذلك عن طريق جبريل الروح الأمين ، قال تعالى(١) ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين ﴾ وقال تعالى(٢): ﴿ وكذلك

---

١ ـ الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٥ ٢ ـ الشورى ، ٥٢،٥٣

أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتابُ ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ .

٤ ـ الرؤيا الصادقة

الرؤيا الصادقة ، كما جاء في الحديث ، جزء من أربعين أو ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

وفي سورة يوسف تطالعنا رؤيا كلّ من يوسف عليه السلام والساقي والخباز والملك .

وإن المتأمل لهذه الرؤى يتبين له أن رؤيا يوسف عليه السلام ، تنفرد باتجاهها إلى أعلى ، إلى السماء . وهي ولا شك تعكس صفاء نفسه عليه السلام وقد اتجه صعداً حتى وصل إلى درجة النبوة التي اصطفاه الله تعالى بها .

ومما يدل على هذا الصفاء النفسي ما روي عن السيدة عائشة رضي الله عنها من أنه أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح (١) .

٥ ـ إخلاص النّصيحة

يعقوب عليه السلام وقد ثبت له أن أبناءه لا يحبون الشقيقين ، يوسف وبنيامين ، ينهى ابنه نهياً صريحاً عن قص رؤياه على إخوته خوف أن يكيدوا له كيداً بإغراء من الشيطان الرجيم .

وإنه عليه السلام ليقوم هنا بدور الناصح الأمين ، بالإضافة إلى أنه يقوم بدور الأب المثالي ، إنه عادل كلّ العدل فيما يتصل بتوزيعه ما يملك على أبنائه بالسوية ، ولكن الذي لا يملكه ، وهو حبه للشقيقين حباً فائقاً ، فهذا قدر من الرحمن عليه ، لا يد له فيه ولا طاقة له على دفعه .

---

١ ـ صحيح البخارى ١/٥

وليس معنى هذا أن يعقوب لا يحب الأبناء الباقين ، لا فقد كان يحبهم حباً جماً . أليس هو الذي طلب منهم أن يدخلوا إلى مدينة مصر من أبواب مختلفة خوف العين لا من باب واحد ؟

ولكن الشيطان الرجيم أظهر هذا الحب للإخوة على غير وجهه . فإن صغار الأبناء أكثر حاجة إلى الحب من سواهم . خاصة حينما يكون الأبوان متقدمين في السن . وخاصة حينما يلوح لهما أو لأحدهما أن هذا الصغير أو ذاك له من المنزلة الدينية والدنيوية ما ليس لإخوته ، وهذا يقودنا إلى الحديث في المسألة التالية مسألة :

٦ ـ الحسد

كان يعقوب عليه السلام يخشى على يوسف من حسد إخوته له لو عرفوا بحقيقة رؤياه ، ومع ذلك فقد قوّى لهم الشيطان الرّجيم ظنّهم الآثم ، وزيّن لهم سوء عملهم .

وقد جاءت في هذه السورة إشارة أخرى إلى الحسد حينما طلب يعقوب من أبنائه دخول مدينة مصر من أبوابٍ متفرقة كما سبق أن أشرنا .

وقد أثنى القرآن الكريم على يعقوب عليه السلام للعمل بالذي علم حينما طلب من أبنائه ذلك ، قال تعالى: ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ .

وإنه عليه السلام ليلقي علينا نحن المسلمين درساً في وجوب توقّي العين فإنها حق كما جاء في الحديث النبويّ الشريف . وكثير هي الإشارات في القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف والأنباء المتواترة إلى هذه الحقيقة .

وربما كان من أسباب تعميق الهوّة بين أبناء يعقوب عليه السلام هو أنهم ليسوا من أمّ واحدة . ولكن الدّور الأكبر في هذا السوء للشيطان الرجيم ، العدوّ اللّدود الحسود للإنسان الذي أراد تعالى له أن يكون خليفته في أرضه .

وقد جاءت في سورة يوسف ثلاث إشارات إليه عليه لعنة الله .

الأولى في قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ، إن الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين﴾ .

والثانية في قوله تعالى عن يوسف عليه السلام : ﴿وقال للذي ظنّ أنه ناجٍ منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين﴾ .

والثالثة في قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام كذلك : ﴿ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾ .

٧ ـ أب مثـــالي

يعقوب نبي الله ، يمثل لنا الأب المثالي في هذه السورة،إنه ليمثل الأب البارّ بأبنائه جميعاً في نهيه لابنه يوسف أن يقص رؤياه على إخوته .

لقد آلمه عليه السلام عدم ودّ الإخوة للشقيقين ، وكان حريصاً على لمّ الشمل ورأب الصدع . ولو قصّ يوسف رؤياه فلربما دفع ذلك الإخوة إلى ما لا تحمد عقباه .

وثبت أن تحذير يعقوب لابنه يوسف في موضعه ، فمع أنه لم يقصّ على إخوته رؤياه إلا أنهم قرروا التخلص منه بوضعه في غيابة الجبّ كي يلتقطه بعض السيارة .

وإذا كان الإخوة قد أقدموا على ذلك بحجة أن يعقوب يحب الشقيقين أكثر من حبه لهم ، فإن الإخوة ملومون في هذا الفهم وفي التخلص من يوسف اللوم كله . لأنهم وهم الذين يكبرون جميعاً الشقيقين سناً ، كان عليهم أن يفهموا الأمر على حقيقته وهو أنه عليه السلام لا يد له في ذلك ،

وإنما هو شيء وضعه الله تعالى في قلبه لهما . وفوق ذلك هو عادل في توزيع ما يملك على أبنائه بالتساوي .

والحقيقة أن نهي يعقوب ليوسف عن قص رؤياه على إخوته ، مظهر من مظاهر تألم يعقوب عليه السلام لعدم الوفاق بين كل أبنائه .

وليس هناك شيء يسوء الآباء ، وفي مقدمتهم نبيّ الله يعقوب الذي لا نكاد نعرف أباً نظيراً له في حب أبنائه ، كما يسوؤه عدم الوفاق بين الأبناء . وقد كان حريصاً الحرص كله على إعادة الوئام بينهم .

ويعقوب عليه السلام يمثل لنا الرجل الذي يوافق قوله ما في قلبه تمام الموافقة .

إن الإخوة حينما يطلبون منه أن يأخذوا يوسف في اليوم التالي كي يرتع ويلعب ، ويجيء على لسانه بصريح العبارة قوله تعالى: ﴿إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾ .

إنه عليه السلام ليحزنه أن يغيب يوسف عنه سحابة يوم واحد . ويظهر حبه ليوسف في هذه الصورة القوية من التعبير ، وهذا الحب نفسه هو الذي يشكو منه الإخوة .

ثم إنه يخاف عليه الذئاب المنتشرة في تلك الأصقاع ، فلربما استبق الإخوة وتركوا يوسف لعدم قدرته مجاراتهم فخلا الذئب به أو مجموعة من الذئاب فأكلوه . وهذا جائز عقلا ، وهو ما تذرّع به الإخوة مستقبلا .

وإن يعقوب عليه السلام ، الأب المثالي ، قد ضرب المثل الأعلى في الصبر الجميل . إنه لأسوة حسنة لكل مسلم لله رب العالمين في هذا المجال . فعلى الرغم من أن هذا الأب الطيّب القلب ، الذي صدّق الوعود المعسولة للإخوة يجيء إليه هؤلاء بالنبأ الجلل ، فإنه وقد كان على يقين من أن كلّ ما يجري في الوجود بقضاء الله وقدره ، لا يزيد ما يجيء على لسانه عن هذا القول : ﴿بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ .

وإن هذا الرجل الطيب القلب الكامل الإيمان ، حينما جاءه الأبناء من الرحلة الأولى إلى مصر ، وطلبوا منه أن يسمح لهم بأخذ الشقيق معهم إن أرادوا من العزيز طعاماً مرة ثانية ، ليذكّر هؤلاء الأبناء بما سبق أن قاموا به تجاه يوسف . ولكنه وهو الواثق بالله يسمح لهم بأخذ الشقيق معهم بعد أن يأخذ منهم موثقاً من الله ليأتنه به إلا أن يحاط بهم .

وفي الوقت الذي يأخذ منهم الموثق يصرح بأن ذلك ليس معناه دفع القَدَر لكن الحذر . إنه عليه السلام بأخذه الموثق من أبنائه من أجل السماح لهم بأخذ أحب أبنائه إليه بعد يوسف ، الذي أخذوه ولم يعودوا به ، ليعتبر مثالا للمؤمن الذي إذا عزم توكل على الله . وفي الوقت نفسه لا يريد أن يُلدغ من الجحر الواحد مرتين .

ومن مقاييس إيمان هذا الرجل الطيب القلب هذا الموثق الذي أخذه من أبنائه فلولا إيمانه الكامل بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ولولا توكله على الله لما أذن لأبنائه بهذه البساطة بعد أخذ الموثق بأخذ الشقيق ، بينما الطعام الذي جاء به الإخوة من مصر لما يمس بعد .

لو أننا بصدد رجل غير يعقوب عليه السلام ، من البشر العاديين لتمسك بعدم أخذ الأبناء الشقيق حتى ينفد الطعام أو يكاد ، ويجد نفسه مضطراً للسماح بأخذ الشقيق وإلا فإن عض المجاعة رهيب لا يطاق . ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾(١) ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾(٢) ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾(٣) ﴿ فإذا عزمتَ فتوكل على الله ﴾(٤) .

إنه عليه السلام بأخذ الموثق من أبنائه ليلقي علينا نحن المسلمين درساً في الطريقة التي يمكن أن يتم التعامل بها مع الذين قد يخشى كيدهم ، كما يعطينا المثال كاملا على ازدياد الإيمان عمقاً والثقة في الله قوة مع مرور الأيام .

---

١ ـ الطلاق ، ٣
٢ ـ ابراهيم ، ١٢
٣ ـ ابراهيم ، ١١
٤ ـ آل عمران ، ١٥٩

فكلما ازداد اختبار الله تعالى له بالابتلاء ، ازداد إيمانه بربه عمقاً وثقته فيه قوة .

حينما غاب عنه يوسف عليه السلام ، كان عنده الأمل في الله كبيراً أن يمن عليه يوماً فيلقاه .

وحينما غاب الشقيق ومعه كبير الإخوة وابيضّت عينا يعقوب من الحزن كان إيمانه في ربه وقتها أكثر قوة ، وثقته في أن يأتيه الله تعالى بهم جميعاً أكبر من أي وقت مضى .

وكان تعالى عند حسن ظن عبده المبتلى يعقوب به فردّ عليه الإبصار . ومَنّ عليه بجمع الشمل بعد أن ظن كثير من آل يعقوب كل الظن ألا تلاقيا ، وتفضل عليه وعلى آله بنقلهم إلى مصر حيث الخصب والخير الوفير .

وكان كلُّ ذلك في الدنيا جزاء إيمانه ، ﴿ ولأجر الآخرة خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

٨ ـ والله غالب على أمـره

هذه جزئية تعقيبية من اثنتين في قوله تعالى: « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ تعقيباً على تمكين الله تعالى ليوسف في بيت العزيز ، تمهيداً للتمكين له في أرض مصر الذي قضت به إرادته خلافاً لإرادة الإخوة.

وهي وإن كانت قد جاءت في أمر خاص ، إلا أنها في حقيقتها عامة تشمل كلّ أمر .

ونودّ أن نقف أولا عند لفظ الأمر من قوله تعالى : ﴿ والله غالب على أمره ﴾ .

إنّ اللفظ ليس الإرادة مثلا أو الرغبة أو ما شاكل ذلك ، ولكنه الأمر. إنه تعالى إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، وهل يمكن للإرادة الضعيفة للإخوة الضعفاء أن يفعلوا شيئاً بأخيهم الصغير يوسف لم يرده الله تعالى له ؟

لا ، بطبيعة الحال .

وتأمل اللفظ « غالب » ذا الدلالة القوية « على » الغلبة القوية للواحد القهار .

فكيف إذا أضفنا إلى أمر الله النافذ الغلبة القاهرة ؟

وكيف بنا إذا أضفنا إلى كل ذلك حرف الجر « على » الدال على العلو اللائق بجلال الواحد القهار ؟

لا شك أننا ننتهي من كل ذلك إلى أن هذه الجزئية ﴿ والله غالب على أمره ﴾ تشير إلى قدرة الله تعالى المهيمنة على كل الأمور ، المسيرة لكل هذا الوجود .

فإذا انتقلنا إلى الجزئية الثانية المرتبطة بها ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أدركنا رحمة الله تعالى الحقيقية بكل عباده ، إذ يمهل ولا يهمل ويمدُّ الطغاة في طغيانهم يعمهون ، وينفذ تعالى أمره أخيراً ، وهو القاهر فوق عباده القادر على تنفيذ أمره ابتداءً جل وعلا .

وإن تأمل جزئيتي التعقيب معاً لا يدل فقط على رحمة البر الرحيم بعباده ، ولكنه يدل كذلك على غفلة كثير من عباده تعالى ، لأن القليلين فقط هم الذين يعرفون هذه الحقائق . أما الكثرة الفائقة من العباد ، وفيهم إخوة يوسف لأبيه ، فإنهم يجهلون هذه الحقائق جهلا تاماً .

وفي بعض الأحايين يستطيع عباد الله أن يفهموا بعد فترة من الزمن تطول أو تقصر ، هذه الحقائق ، ومنهم إخوة يوسف الذين بعد أن نبأهم يوسف بأمرهم جاء على لسانهم قوله تعالى : ﴿ تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ .

٩ ـ الاختلاط بين الجنسين

من أهم الأسباب التي جعلت امرأة العزيز أولا والنسوة ثانياً ، يعتقدن أن بالإمكان أن ينلن من يوسف ما يردن ، الاختلاط بين الجنسين وعدم صيانة الأعراض في ذلك المجتمع غير صحيح العقيدة .

وقد عانى يوسف عليه السلام ، الشاب الصالح من جراء ذلك عناء شديداً . ومعروف أن الإسلام عالج هذه الظاهرة علاجاً ممتازاً حكيماً ونكتفي في هذا الصدد بتلاوة بعض آيات الذكر الحكيم . قال تعالى: (١) ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم ، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ، قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ .

وقال تعالى (٢) ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم . وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته ، والله عليم حكيم . والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن

---

١ ـ النور ، ٢٧ـ٣١

٢ ـ النور ، ٥٨ـ٦٠